انتفاء الحق الديني و التاريخي لليهود في أرض فلسطين

بموجب ما جاء في التوراة والإنجيل وفي آي التنزيل

إعداد
أ.د/ محمد عبد العليم دسوقي
الأستاذ بجامعة الأزهر

تقديم فضيلة الشيخ الداعية
محمد حسان

مراجعة
مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

(قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين. قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون.. الأعراف/ 128، 129).

(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنكم في الأرض كما استخلف الذين من قبلكم وليمكنن لهم دينكم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون.. النور/ 55).

الإهداء

* إلى قدس المسلمين التي لا يجوز لأحد تاريخياً ولا دينياً – وبموجب ما جاء في الكتاب المقدس وفي آي التنزيل وعلى ألسنة جميع الأنبياء و المرسلين – أن ينازعهم فيها.

* إلى عز الإسلام وفخر المجاهدين ومهد النبوات، إلى زهرة المدائن وعبق التاريخ ومهبط الرسالات.

* إلى أرض الفتوة والجهاد والصبر والإباء، ومهبط الملائكة الأصفياء، ومجمع الرسل والأنبياء، ومنتهى مسرى الرسول في الأرض ومبتدى معراجه إلى السماء.

* إلى عزمات صحابة الصادق الأمين، وثمرة كفاح الفاروق أمير المؤمنين، وهمة الصدق في يمين الناصر صلاح الدين، وقاعدة الرباط إلى يوم الدين، وغضبة الحق في سيوف الحفدة الميامين.

* إلى كل متدين يؤمن بكتابه ويتمسك بمنهج نبيه ويريد أن يسلك طريق الحق ويعرف كلمة الصدق في قضية هي من أخطر قضايا العصر.. مسلماً كان أو مسيحياً أو يهودياً.

المقدمة

صدر هذا الكتاب أول ما صدر بعنوان: (الحقائق العشر لحتمية تحول موعود الله من بني إسرائيل إلى بني إسماعيل)، وقد زانه وزاد في قدره: موافقة (مجمع البحوث الإسلامية) بالأزهر الشريف على طبعه ونشره، بيد أن هذا العنوان بدا وكأنه لغز محير، ذلك أنه ليس في مقدور كل أحد أن يستوعب أن ثمة وعداً جرى في يوم من الأيام على ألسنة أنبياء الله (إبراهيم وإسحاق ويعقوب)، لبنيهم من نسل يعقوب بأن يرثوا ويمتلكوا أرض الله المقدسة، وأن ذلك كان مشروطاً بالحفاظ على منهج الله الذي خطه لعباده، وأنهم لما بدلوا وأفسدوا ونقضوا عهودهم ووعودهم جرت عليهم سنة الله في خلقه والقائل فيها: (وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم.. محمد/ 38).. وليس بمقدور كل أحد كذلك أن يستوعب حكمة الله في أن يأمر خليله إبراهيم عليه السلام في حياته – بل وقبل أن يولد له (إسحاق) على الصحيح – بالذهاب بهاجر زوجه الثانية وابنه الذي جاءه منها على الكبر إسماعيل، إلى بلاد العرب تمهيداً لتحول لما يحن وقته بعد، وسيكون بعد زمن طويل وفق علمه تعالى وبعد أن تهيأ أسبابه ويحِن وقته.. ولما كان الأمر كذلك آثر مؤلف هذا الكتاب الوثائقي أن يجعل عنوانه: (حقائق حول عدم أحقية اليهود في أرض فلسطين).

وإذا كان العنوان الأول قد جاء معبراً عن حقيقة ما سنه الله في خلقه من أن (الأرض لله يورثها من يشاء من عباده)، وعن سنته كذلك في التحول وفي التمكين في نهاية المطاف لأهل الحق وفي جعل المآل دائماً وأبداً (والعاقبة للمتقين.. الأعراف/ 128)، فإن الآخر – فيما ربما يتراءى للكثيرين – يتميز باليسر والوضوح، وبالبساطة والبعد عن الجدل الدائر واللغط الحاصل حول صحة وجود موعود مسبق وموقوت ومعلق، أم أن ذلك كان "لفجور الشعوب" يعني: لما جرى منها ومن فرعون لما كذبوا بما جاءهم به موسى من قبل بالبينات، على ما ورد ذكره في التوراة السامرية وتحديداً في الإصحاح التاسع من سفر التثنية بالعدد الخامس والسادس، فقد جاء فيهما ما نصه: "ليس بزكاتك ولا بسلامة قلبك أنت داخل لوراثة أرضهم، بل لفجور الشعوب، هؤلاء الله قارضهم من بين يديك وحتى يثبت الأمر الذي أقسم لآبائك لإبراهيم ولإسحاق وليعقوب. فاعلم أن ليس لزكاتك الله إلهك معطيك الأرض الحسنة هذه وراثة، إذ شعب قاسي العرف أنت"؟.. وعلى تقدير أن ثمة موعوداً بالريادة والنبوة والإمامة لبني إسرائيل بحق، فهل كان ذلك على إطلاقه حتى يتسنى لإسرائيل أن تتخذ منه ذريعة في أن تحتل أرض الغير وتهلك الحرث والنسل بزعم هذا البعد الديني والتاريخي؟.. وكيف وعلى أي أساس تم تحويله عنهم – وفق سنته تعالى في خلقه وعلى ما ألمح إليه النص السالف الذكر – إلى غيرهم؟.

ومهما يكن من أمر، فما أراه: أن عنوانات هذا الكتاب المتعاقبة تهدف إلى تجلية الأمور المعماة في هذه القضية المصيرية، وهي مهما تغيرت فإن بعضها يكمل بعضاً، ولا يمكن فهم جميعها حق الفهم إلا بمعرفة مجموعة تلك الحقائق التي تضمنتها المادة العلمية لهذا الكتاب المتواضع، ذلك أن العلمانية التي طغت وأذهبت معها الدين والحق معاً في نفوس السواد الأعظم من عامة الناس وخاصتهم، بل ومن جميع طوائف البشر إلا من رحم الله، هي التي جعلتهم بعيدين كل البعد عن تقصي حقائق ما في هذا الكتاب المتكئ على نصوص الكتب المعتمدة والمتعبد بها لدى اليهود والنصارى والمسلمين،

وسبرها والوصول من خلالها إلى كلمة سواء.
والذي يجب أن يكون حاضراً دائماً وأبداً في الأذهان: هو أن الله لا يرضى لعباده الكفر، ومن ثم فقد قضت حكمته أن لا ينال عهده الظالمين ولا ينال الظالمون عهده، ومضت سنته في أن الأرض له يورثها عباده الصالحين الرحماء، تلك هي الحقيقة التي يماري فيها البعيدون عن منهج الله وغير العارفين بسنته تعالى في خلقه، ولاسيما في معالجة مشكلة الشرق الأوسط التي علا فيها صوت الغوغاء، وانمحت بسببها لغة العقول وروح الشرائع، وراجت حولها دعايات وأكاذيب الآلة الإعلامية الصهيونية الجهنمية التي أشاعت بالباطل أحقية اليهود في تيك الأرض المقدسة وأذاعت به، وأقرت وارتضت في سبيل تحقيقه كل ما يفعله في عصرنا قتلة الأنبياء وعبد الطاغوت وإخوان القردة والخنازير ومَن لا يرقبون في مسلم إلا ً ولا ذمة، ضد أصحاب هذه الأرض على الحقيقة، من استخدام كل ألوان البطش والعربدة، والتهجير والتدمير، وسفك الدماء وا لإبادة الجماعية واستخدام الأسلحة المحرمة دولياً، والحبس والسحق واتباع كل ألوان التعذيب، وسلب الأرض وهتك العرض وإهلاك الحرث والنسل، بحيث لم يسلم من شرورهم طفل ولا شاب ولا رجل ولا امرأة ولا عجوز ولا كهل.
ويأتي هذا الكتاب الوثائقي ليمط اللثام عن مجموعة من الحقائق التي تكشف عن هذه السنن، وتناقش وتفند ما يجري على الساحة العربية والدولية الآن من لغط في أحقية بني إسرائيل في أرض فلسطين أو أجزاء منها، وليضع حداً لما يجري على أرض هذا البلد العربي الإسلامي (فلسطين) وما يحدث من انتهاكات لأنفس ومقدسات المسلمين هنالك بشكل دائم لا تبدو معه ولا تلوح في الأفق القريب حياله نهاية، تلك الانتهاكات التي أضحت شاهدة عيان على أن هؤلاء المجرمين لا يريدون العيش – مع من احتلوا أرضهم وديارهم – في أمان، ولا يرومون ولا يسعون معهم إلى سلام، ولا يقنعون بما تحت أيديهم مما استلبوه من بلاد المسلمين التي آوتهم بعد أن طردوا من غيرها من بـ لاد الشرق والغرب شر طردة، وإنما يريدون – عن طريق ترويج الأكاذيب وليّ الحقائق – تحقيق المزيد من مطامعهم وأن يكون الوطن العربي كله من النيل إلى الفرات بل وا لإسلامي كذلك، أسير شهواتهم ومرتع نزواتهم وعنصريتهم، وأن يدمروا مع ذلك أولى قبلتي المسلمين وثالث حرميهم الشريفين، ليبنوا على أنقاضه أسطورة طالما تغنوا بها أسموها (الهيكل).. وإلى وحده تعالى المشتكى، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.
من هنا – ولاسيما في تيك الأيام التي يراد للصوت الإسلامي العربي في فلسطين وبشتى الوسائل والضغوطات الداخلية والخارجية، أن يخ ْفَ ُت أو يعترف لإ سرائيل بحق احتلال الأرض والمساومة على حق هذا الشعب الضائع والمغلوب على أمره – كان لزاماً أن تنكشف الحقيقة كاملة غير منقوصة إن كنا نريد الوصول إليها ونريد معها الوصول إلى رضائه تعالى والجنة.. والله تعالى هو الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

****

تمهيد

أول ما تستدعيه الذاكرة المؤمنة عندما تُذكر فلسطين.. المسجد الأقصى والقدس الشريف، والسر في ذلك ببساطة شديدة يكمن في: ارتباط هذين المكانين بمعتقدات المسلمين وبعباداتهم، وبجهادهم وبقرآنهم وبنبيهم، كما يَمْثل في: ارتباطهما بوحدة الدين وانتقال السيادة والإمامة إلى أمة محمد ، لكونها ونبيها أولي الناس بإبراهيم عليه الصلاة والسلام، الذي طلب ذلك لذريته عندما قال له ربه: (إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي)، فأجابه سبحانه: (قال لا ينال عهدي الظالمين.. البقرة/ 124)، لكن وبتبجح منقطع النظير، يتردد دائماً وأبداً علي ألسنة زعماء أبناء صهيون وحاخاماتهم، أن بيت المقدس ملك لشعب يهود، وأن القدس الشريف عاصمة دولتهم المزعومة.. ويغريهم بذلك مساندة أمريكا والغرب لهم من جانب، وغفلة العرب و المسلمين وغياب الحقائق عنهم من جانب آخر.

ونذكر ضمن هذه التصريحات ما جاء على لسان أحد رؤساء وزرائهم السابقين وهو إيهود باراك الذي لم يكتف بالقول بأن "ستكون هناك أورشليم أكبر مما كانت عليه منذ الملك داود، وستكون موحدة ومعترفا بها من العالم كعاصمة لإسرائيل"1، حتى أتبع القول بالعمل فسمح وقت أن كان رئيساً للوزراء2، لزعيم الحزب المتطرف المعارض و الذي أضحى رئيساً للوزراء فيما بعد آريل شارون – باعتباره أول زعيم يهودي يتعامل مع قضية القدس بجدية ويسعى للقضاء على الوجود العربي والإسلامي بها – بإرسال كتيبة من العسكر بلغ قوامها ثلاثة آلاف، لحمايته أثناء اقتحام المسجد الأقصى في غرة رجب1421هـ الموافق 29 سبتمبر لعام 2000م، أي في ذكرى تحرير صلاح الدين للقدس في رجب 583هـ سبتمبر 1187م.

ومنذ تلك اللحظة والعالم يشهد – دون أن يحرك ساكناً – حرب الإبادة الجماعية الذي يتعرض له الشعب الفلسطيني المسلم، وحجم التدمير الذي تتعرض له بلاده بكل همجية وعنصرية، كما يرقب الانحياز الأمريكي الأعمى والصمت الغربي المريب لإ سرائيل وما تقوم به من أعمال عدوانية بربرية حتى على الأطفال والنساء والعجزة في بقعة هي عند المسلمين من أطهر بقاع الأرض.

ومما تجدر الإشارة إليه وينبغي أن يعيه كل مسلم، هو أن رفع شعار (أن تكون القدس

---

(1) جريدة الأهرام القاهرية في غرة رجب 1421 الموافق 29/ 9/ 200 الصفحة الأولى.

(2) في محاولة منه لتنفيذ مخططاته الأربع لتهويد القدس والإحاطة بها من كل جانب تمهيدا لما أسماه (مشروع القدس الكبرى) الذي يقضي حسب ما أعلنته الحكومة الإسرائيلية في 12/ 1974بتوسيع حدود القدس لتنضم إليها ثلاث مدن و27 قرية عربية، وأصدر الكنيست بشأنه في30/ 7/ 1980 قانوناً يعتبر القدس الموحدة عاصمة أبدية لإسرائيل.

عاصمة لإسرائيل الموحدة) والعمل من ثمّ على تحريرها من سكانها العرب والمسلمين.. إنما ينبع لدي أولئك الساسة ورجال الدين من منطلق عقدي يتمثل في أنها الأرض التي وعدوا بها على ألسنة رسلهم، وقد تم التخطيط لهذه الانطلاقة منذ بداية هذا القرن على يد (هرتزل) الذي فكر في إقامة دولة يهودية سياسية، ثم عدل عن ذلك لما بدا له معارضة مؤتمر الحاخامات، وعدم رغبة يهود العالم في النزوح عن بلادهم التي استقروا فيها.

الأمر الذي دعاه لأن يعمل على تحويل الموضوع من قضية سياسية إلى قضية دينية يلهب بها عواطف جماهير اليهود، وقد رأى أن فلسطين هي المكان الوحيد الذي يناسب هذه الدعوة الجديدة، باعتبارها حسب ما تقضى به عقائد اليهود الباطلة (أرض الميعاد)1.

وانتصرت فكرة (هرتزل)2 التي تضمنت – على ما جاء في وقائع المؤتمر الصهيوني الأول المنعقد في مدينة (بازل) السويسرية في سبتمبر من عام 1898 – قيام دولة إسرائيل في فلسطين بعد خمسين عاماً، وقيام إسرائيل الكبرى التي تشمل على حد زعمهم الحدود التاريخية والدينية الممتدة من النيل إلى الفرات بعد مائة عام، وهي ما تسعى الآن جاهدة في سبيل تحقيقه من خلال غزو العراق عن طريق حلفائها من الأمريكان والغرب.. ودعا هرتزل في سبيل تحقيق فكرته، لإزاحة السلطان عبد الحميد الثاني خليفة المسلمين، الذي كان يمثل العقبة الكئود أمام تحقيق الحلم الصهيوني، وكان لهرتزل فيما بعدُ ما أراد، فقد احتضن المؤتمر اليهودي العالمي فكرته عام 1905 أي بعد وفاته بسنة واحدة، وعمل اليهود من ساعتها على تقويض الخلافة الإسلامية، وساعدهم في كل هذا ولازالت، قوى كبرى حاقدة على الإسلام والمسلمين.

ومن يوم أن وعد (بلفور) وزير خارجية بريطانيا يهود العالم بإقامة وطن قومي لهم في فلسطين في 1917/11/2 ليعطي من لا يملك من لا يستحق، والأحداث تتواصل بسرعة مذهلة.. فما أن أقامت إسرائيل دولتها في 1948/5/15 واعترفت بها روسيا بعد ثمان دقائق، وأمريكا بعد نصف ساعة، وقررتا أن إسرائيل خلقت لتبقى.. حتى دخلت في 5/ 6/ 1967م في حرب مع جيرانها من العرب، استولت خلالها على القدس الشريف والضفة الغربية وغزة وجنوب لبنان ومرتفعات الجولان وأرض سيناء.

---

(1) وكانت بريطانيا قد عرضت عليه سنة 1903م فكرة استيطان اليهود في (أوغندا) لاعتدال مناخها وغناها ، غير أنه رفض هذا العرض كما رفضه المؤتمر الصهيوني، ومن قبل عرض عليه وزير المستعمرات البريطاني تشامبرلين في أكتوبر 1902م فكرة جعل الاستيطان في منطقة العريش بسيناء وفشل نظراً للصعوبات التي كانت حول النزاع على حدود سيناء مع الدولة العثمانية، كما لم تنجح فكرة جعله على ضفتي نهر الأردن، تلك الفكرة التي تبناها من قبل اليهودي الفرنسي (موسى هس)، وآثر هرتزل تنفيذ خطته – التي ساندته فيها بريطانيا بعد أن تصاعدت هجرة يهود روسيا وأوربا الشرقية إلى أرض فلسطين – واضعاً في اعتباره تراثاً دينياً لم يكن هو شخصياً يؤمن به.. الأمر الذي يعكس رغبة أوربا في التخلص من اليهود بأي شكل مع إيمانها بالمشروع الصهيوني الذي يهدف إلى شغل البلاد المسلمة والضغط عليها من جانب، وإلى زرع جسم غريب يستنزف طاقاتها وقدراتها وثرواتها من جانب آخر، كما ينقض دعاوى القومية التي تذرع بها اليهود وبالتالي عدم صحة ادعاءاتهم حول أرض الميعاد من جانب ثالث.. ينظر (الإمبريالية والصهيونية) د.بشير نافع ص82 وما بعدها و(القدس عربية إسلامية) د.فرج راشد ص207 وما بعدها.

(2) التي سبقه إليها الكاتب الألماني (موزيسي هيسي) في عام 1862بعد أن تراجع عن فكرته التي أودعها كتابه (تاريخ البشرية) تلك الفكرة التي كان يقول فيها: "إن شعب الله المختار ينبغي أن يختفي إلى الأبد، ليفسح الطريق لحياة جديدة أكثر نقاء وطهراً".

ثم ما لبث أن فجع العالم الإسلامي بعدها بـ (مناحم بيجن) يضيف إلى البعد السياسي الذي انتزعه الصهاينة دون أي مستند لوضع القدس، بعداً آخر دينياً.. وذلك أثناء تعقيبه على خطاب الرئيس (السادات) – رحمه الله – أمام الكنيست حيث قال مؤكداً هذا الحق المزعوم: "إن حق إسرائيل في فلسطين حق أبدى تاريخي تشهد له الكتب، ومنها القرآن نفسه".. وبعد استدلاله على دعواه الكاذبة، بقول الله تعالى على لسان موسى: (يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين.. المائدة/ 21)، أردف يقول "إن الله فرض لنا الأرض المقدسة دون سائر الخلق فلا يجوز لأحد دينيا أن ينازعنا فيها"1.

ونسى هذا وكل من يردد قوله، بل وكل من انطلى عليه هذا الكلام وقيل بحضوره دون أن ينبث ببت شفه، ما حدّثت به الأجيال جيلا ً بعد جيل عن مكر هؤلاء اليهود منذ أن خلقهم الله، وعن ظلمهم الذي ورثوه كابراً عن كابر، وما جرت به سنة الله في أن الله تعالى ينصر الأمة العادلة ولو كانت كافرة ويمحق الأمة الظالمة ولو كانت مؤمنة.. نسي كل هؤلاء ومع كل ما ذ ُكر، أن (الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.. الأعراف/ 128)، وأن سنة الله الماضية تقضي بأن البقاء للأتقى والأحفظ لتعاليم الرب واتباع أنبياء الله ورسله، على ما أفاده قول الله تعالى: (وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين. ولنسكننكم الأرض من بعدهم.. إبراهيم/ 12، 13)، يعني: لما تمادت أمم الرسل في الكفر وتوعدوا رسلهم بالوقوع بهم، أوحى الله إليهم بإهلاك من كفر بهم من أممهم وتوريثهم أرضهم وديارهم و َو َعد َهم النصر.. وقوله كذلك: (وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلا ً. سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا ً.. الإسراء/ 76، 77).

يقول أهل العلم والتفسير: إن (سنة) "نصب على المصدرية، أي: سننا في ذلك سنة من أرسلنا قبلك من رسلنا.. إلخ، وهي أن لا ندع أمة تستفز رسولها لتخرجه من بين ظهرانيها، تلبث بعده إلا قليلا ً، فالسنة لله وأضيفت للرسل عليهم السلام لأنها سـ ُنـّت لأجلهم، ويدل على ذلك قوله تعالى: (ولا تجد لسنتنا تحويلا ً)"، كذا ذكره الآلوسي والطبري[2].

وإذا كان ذلك هو عينه ما جرى وفق سنة الله وما حصل لسائر الأمم الكافرة، فما يكون الحال لمن جمعوا – على مدار تاريخهم الطويل – مع إخراج الأنبياء والاعتداء عليهم بسائر أنواع الاعتداء، والبطش بهم واستفزازهم بسائر ألوان البطش والاستفزاز، التآمر على قتلهم والكفر بالرب وعبادة العجل والنقض لجميع ما أمر الله تعالى؟!.

ومصداقه في كتب القوم، ما جاء في سفر (لاويون25: 23) من قول الرب في خطابه لبني إسرائيل: "والأرض لا تباع بتةً. لأن لي الأرض وأنتم غرباء ونزلاء عندي".. وما جاء في سفر حزقيال 11: 17 – 21 "قال السيد الرب: إني أجمعكم من بين الشعوب وأحشركم من الأراضي التي تبددتم فيها وأعطيكم أرض إسرائيل. فيأتون إلى هناك ويزيلون جميع مَكرُهَاتِها وجميع رجاساتها منها. وأعطيهم قلباً واحداً وأجعل في

---

(1) ينظر (القدس قضية كل مسلم) د. يوسف القرضاوي ص97.

(2) روح المعاني 15/ 190 مجلد 9 وينظر 13/ 289 مجلد8 وجامع البيان للطبري 13/ 129 مجلد7، 15/ 90 مجلد8

داخلكم روحاً جديداً وأنزع قلب الحجر من لحمهم وأعطيهم قلب لحم. لكي يسلكوا في فرائضي ويحفظوا أحكامي ويعملوا بها ويكونوا لي شعباً فأنا أكون لهم إلهاً. أما الذين قلبهم ذاهب وراء قلب مَكْرُهَاتِهم ورَجاساتِهم فإني أجلب طريقهم على رؤوسهم، يقول السيد الرب".

كما نسى معشر يهود أن سنة الله تقضى بألا يمكن إلا لمن يقيم العدل في الأرض، ويشيع الصلاح بين جنباتها، كي تنسجم حركه الكون مع من فيه، وبذا يعمر الكون بذكر الله، ويشدو من فيه بتوحيده، إذ الكون وما فيه ومن فيه ما خلق إلا لهذا على ما جاء في قوله: (وإن من شيء إلا يسبح بحمده.. الإسراء/44)، وقوله: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون.. الذاريات/ 56).

ونسوا كذلك أو تناسوا أن تاريخهم الأسود بماضيه البائس وحاضره اليائس، ملطخ بدماء الأبرياء ومليء بانتهاك حرمات رب الأرض والسماء، ومفعم بالتآمر على أنبياء الله والصلحاء من عباده ممن يأمرون بالقسط من الناس بل وقتلهم في أكثر الأحيان، ومترع بكتمان وتحريف الكلم عن مواضعه، وحافل بضروب الظلم ومختلف الجرائم، وتلك أمور تحول – من دون شك ووفق سنن الله في خلقه – دون التمكين في الأرض أو التمايز عن الخلق، ذلك أن الذي فضلهم في وقت من الأوقات على العالمين، ووعدهم – إن هم أقاموا عهده – بالتمكين، هو الذي قضى على ألسنة رسله وفي جميع كتبه – ولا راد لقضائه ولا معقب لحكمه – ألا يمكن إلا لعباده الصالحين، وألا ينال عهده الظالمين، يقول الأعمش سألت سعيد بن جبير عن قول الله تعالى: (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض لله يرثها عبادي الصالحون.. الأنبياء / 105)، فقال: الزبور: التوراة والإنجيل والقرآن، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الزبور: الكتب التي نزلت على الأنبياء، والذكر: أم الكتاب الذي يكتب فيه الأشياء قبل ذلك، وبمثله قال ابن جرير والثوري ومجاهد1.

وإذا كان أبناء صهيون يدّعون أن نصوص كتبهم بل ونصوص قرآننا المتبرئ منهم ومن فعالهم، تشير إلى وعد قطعه الله على نفسه أن يمكن لإبراهيم ولنسله من بعده في أرض فلسطين (أرض الميعاد)، فإن هناك مجموعة من الحقائق المهمة التي تجدر الإشارة إليها والتذكير بها، وتتمثل في:

---

(1) ينظر تفسير أحكام القرآن للقرطبي 4529/6 وتفسير ابن كثير 207/3.

الحقيقة الأولى
تعليق موعود الله لبني إسرائيل على استيفاء شروط
****

إن وعد الله بالسيادة والإمامة كان بالنسبة لبني إسرائيل وعداً مشروطاً بتنفيذ التعاليم، وبصون أوامر الرب وبحفظ العهود والمواثيق التي أخذت عليهم، وذلك بعد أن أتى الله إبراهيم رشده وكان عالماً ببره وإيمانه، وبعد أن منحه أرض الميعاد وجعلها في بنيه وذريته من إسحاق وإسماعيل قائلاً له: "اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك. فأجعلك أمة عظيمة، وأباركك وأعظم اسمك وتكون بركة. وأبارك مباركيك، ولاعنك ألعنه، وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض. فذهب أبرام كما قال له الرب".. هكذا كانت البداية على حد ما جاء في سفر التكوين – أحد أسفار العهد القديم في الكتاب المقدس – الإصحاح 12 العدد 1-4.

ولقد أوضح القرآن ما أوضحته الكتب السماوية الأخرى، أن استخلاف الأرض – ولاسيما أرض الميعاد – لأيٍّ له ثمن لا بد من دفعه وتحمله، وينحصر ذلك الثمن – باختصار شديد – في عبادة الله وحده وصون أوامره واجتناب نواهيه، وذلك قوله سبحانه: (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنكم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً.. النور/55)، ولا يبعد أن تكون الإشارة بالاستخلاف لمن قبلنا في الآية، لبني إسرائيل.. بل هذا ما جزم به القرطبي وابن كثير1 وغيرهما، وترجح لدى الآلوسي2 وغيره.

كما ذكر لنا المولى في غير ما سورة، تفاصيل ما كان لذرية إسرائيل بن إسحاق من تمكن إبان فترة صلاحهم، وكيف أن الله أورثهم – بعد أن كانوا مستضعفين – مشارق الأرض ومغاربها، وبوأهم – بعد ذل وقهر من فرعون وملئه – مبوأ صدق، ومكنهم من أرضهم وديارهم وجناتهم، وإن كانت بالنسبة لبني إسرائيل – على ما يبدو – تجربة قاسية وامتحاناً صعباً، كشف عن جزعٍ ولؤمٍ في طباع سوادهم الأعظم أحس بهما موسى عليه السلام حينما بثوا شكواهم إليه من جراء ما عايشوه من بطش قال الله في شأنه: (وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى ومن معه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون. قال موسى لقومه استعينوا لله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين. قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون.. الأعراف/ 126- 129).

والقصة باختصار أنه لما طال مقام موسى – عليه السلام – ببلاد مصر وأقام بها حجج الله وبراهينه على فرعون وملئه، وهم مع ذلك يكابرون ويعاندون.. دعا عليهم بقوله: (ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.. يونس/88).

وشاءت إرادة الله أن يجيب دعاءه فأمره أن يخرج ببني إسرائيل ليلاً من مصر وأن يمضي بهم خفية حيث يؤمر، دون إذن من فرعون، الأمر الذي أثار حفيظته، وكان هذا الفرعون الجبار العنيد قد تسلط عليهم، يستعملهم في أخس الأعمال ويكدهم ليلاً ونهاراً في أشغاله وأشغال رعيته، ويقتل مع ذلك أبناءهم ويستحي نساءهم إهانة لهم واحتقاراً، وخوفاً من أن يوجد منهم الغلام الذي كان قد تخوف هو وأهل مملكته منه، فيكون هلاكه وذهاب دولته على يديه3.

وقد كان، فقد أغرقهم الله في اليم الذي فَرَقَه لموسى فجاوزه هو ومن معه من بني إسرائيل،

---

(1) ينظر تفسير الأحكام للقرطبي 4837/6 وتفسير القرآن العظيم لابن كثير 3/ 310.

(2) وعبارته: "هم بنو إسرائيل استخلفهم الله في الشام بعد إهلاك الجبابرة، وكذا في مصر على ما قيل من أنها صارت تحت تصرفهم بعد إهلاك فرعون، وإن لم يعودوا إليها، أو هم ومن قبلهم من الأمم المؤمنة الذين أسكنهم الله تعالى في الأرض بعد إهلاك أعدائهم من الكفرة الظالمين..".. تفسير الآلوسي297/10.

(3) وكان القبط قد تلقوا هذا من بني إسرائيل فيما كانوا يدرسونه من قول إبراهيم حين ورد الديار المصرية، وجرى له مع جبارها ما جرى لما أراد أخذ زوجه سارة ليتخذها جارية، فصانها سبحانه بقدرته، وبشر إبراهيم ولده أنه سيولد من صلبه وذريته من يكون هلاك فرعون مصر على يديه، فكانت القبط تحدث بهذا عند فرعون.. ينظر تاريخ الطبري 388/1 والكامل لابن الأثير 101/1 وتفسير ابن كثير 3/ 393، 392.

وأقرّ أعينهم وهم ينظرون إلى فرعون وإلى جنده وقد أغرقوا جميعاً في صبيحة يوم واحد، كما قال تعالى: (وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم. وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون.. البقرة/49، 50)، وأورثهم بعد ذلك ديارهم وأموالهم وملكهم بعد أن أخرج الله منها فرعون وملئه بلا رجعة1 كما قال تعالى: (فأخرجناهم من جنات وعيون. وكنوز ومقام كريم. كذلك وأورثناها نبي إسرائيل... الشعراء/ 57-59)، وقال: (كم تركوا من جنات وعيون. وزروع ومقام كريم. ونعمة كانوا فيها فاكهين. كذلك وأورثناها قوماً آخرين.. الدخان/ 25- 28)، وأسبغ الله عليهم – بعد ذلك – نعمه الظاهرة والباطنة والدينية والدنيوية، واستقرت الدولة الموسوية على بلاد مصر بكمالها – وإن لم يعودوا إليها بعد خروجهم – وبلاد الشام مما يلي بيت المقدس ونواحيه.

ولكن ظلت نفوس بني إسرائيل مع كل ذلك، مشرئبة ومتطلعة وطالبة بلاد المقدس التي قصدها من قبل جدهم إبراهيم عليه السلام، مهاجراً من وطنه الأصلي بالعراق ووعدهم – ضمن من وعدهم – بها2، وجاءت الأوامر إثر ذلك – بل ومن قبل إهلاك فرعون – تترا على يد وعلى لسان نبيهم موسى عليه السلام على ما ورد في نصوص كتبهم من نحو ما جاء في الإصحاح 6 العدد17، 18من سفر التثنية أن "احفظوا (أي إن كنتم تريدون ذلك) وصايا الرب إلهكم وشهاداته وفرائضه التي أوصاكم بها3. واعمل الصالح في عيني الرب لكي يكون لك خير وتدخل وتملك الأرض الجيدة التي حلف الرب لآبائك"، وما جاء في الإصحاح السابع منه في العدد11- 16 "احفظ الوصايا والفرائض والأحكام التي أنا أوصيك اليوم لتعملها. ومن أجل أنكم تسمعون هذه الأحكام وتحفظون وتعملونها يحفظ لك الرب إلهك العهد والإحسان اللذين أقسم لآبائك. ويحبك ويباركك ويكثرك ويبارك ثمرة بطنك وثمرة أرضك.. ونتاج بقرك وإناث غنمك على الأرض التي أقسم لآبائك أنه يعطيك إياها. مباركاً تكون فوق جميع الشعوب لا يكون عقيم ولا عاقر فيك ولا في بهائمك. ويرد الرب عنك كل مرض وكل أدواء مصر الرديئة التي عرفتها لا يضعها عليك بل يجعلها على كل مبغضيك. وتأكل (أي وتفني وتهلك) كل الشعوب الذي الرب إلهك يدفع إليك".

ومما يتضح منه كذلك أن الوصية بالوعد بتوريث الأرض مشمولة بالوعيد إذا انقلبوا سواء كان هذا أيام موسى أو غيره من الأنبياء: ما جاء في الإصحاح 4 من العدد 25-27من سفر التثنية، ونصه: "إذا ولدتم أولاداً، وأولاد أولاد، وأطلتم الزمان في الأرض وفسدتم وصنعتم تمثالاً منحوتاً صورة شيء ما، وفعلتم الشر في عيني الرب إلهكم لإغاظته. أشهد عليكم اليوم السماء والأرض أنكم تَبيدون سريعا عن الأرض التي أنتم عابرون الأردن إليها لتمتلكوها. لا تطيلون الأيام عليها بل تَهلكون لا محالة. ويبددكم الرب في الشعوب فتبقون عدداً قليلاً بين الأمم التي يسوقكم الرب إليها"4.. وما جاء في الإصحاح8 العدد17- 20من نفس السفر: "لئلا تقول في قلبك: قوتي وقدرة يدي اصطنعت لي هذه الثروة. بل اذكر الرب إلهك أنه هو الذي يعطيك قوة لاصطناع الثروة لكي يفي بعهده الذي أقسم لآبائك كما في هذا اليوم. وإن نسيت الرب إلهك وذهبت وراء آلهة أخرى وعبدتها وسجدت لها، أشهد عليكم اليوم أنكم تَبيدون لا محالة. كالشعوب الذين يبيدهم الرب من أمامكم كذلك تبيدون لأجل أنكم لم تسمعوا لقول الرب إلهكم".

ونظير ذلك نطقت به التوراة السامرية5، وفيها على غرار ما جاء في نص العبرانية الأخير: "ولئلا

---

(1) وذلك إبان لحاقهم بموسى وبمن معه، فقد "ذكر غير واحد من المفسرين أن فرعون خرج في محفل عظيم وجمع كبير، هو عبارة عن مملكة الديار المصرية في زمانه، أولي الحل والعقد والدول من الأمراء والوزراء والكبراء والرؤساء والجنود"..ابن كثير 347/3.

(2) بناء على وعد الرب الذي ورد ذكره في نحو قوله لإبراهيم: "لنسلك أعطي هذه الأرض" [تكوين 12: 7 وينظر 12: 1-4]، ومصداقه ما جاء في قوله تعالى حكاية عنهم وعن فرعون: (فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعاً. وقلنا من بعده لنبي إسرائيل اسكنوا الأرض.. الإسراء/ 104، 105)، "فالأرض الأولى هي المعهودة هي أرض مصر، والأرض الثانية أرض الشام وهي المعهودة لبني إسرائيل بوعد الله إبراهيم إياها".. التحرير و التنوير لابن عاشور 228/15من المجلد السابع.

(3) وكان ضمن هذه الوصايا بعد عبادة الله والإحسان إلى الوالدين وحفظ يوم السبت، ما جاء في سفر التثنية 5: 16-21 "ولكي يكون لك خير على ا لأرض التي يعطيك الرب إلهك – وعبارة سفر الخروج 20: 12(لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلهك) – لا تقتل. ولا تزن. ولا تسرق. و لا تشهد على قريبك شهادة زور. ولا تشته امرأة قريبك ولا تشته بيت قريبك ولا حقله..)، فأين هم من كل ذلك؟ وأما آن لهم أن يعرفوا أن زوال النعمة وتحولها عنهم إنما كان بزوال أسبابها؟ وهلا اتخذوا مما سبق لهم عظة وعبرة؟.

(4) أليس هذا ما يمثل واقع اليهود الذين كانوا ولا يزالون يعيشون فيه.

(5) اختلفت التوراة العبرانية عن السامرية عندما افترق اليهود سنة 975ق.م وانشق السامريون وهم العشرة الأسباط أبناء يعقوب عليه السلام على رحُبعام بن سليمان بن داود عليهما السلام، وأنشئوا في الشمال مملكة إسرائيل وعاصمتها نابلس بزعامة يَرُبعام [الملوك الأول12: 12-33]، وبقي سبطا يهوذا وبنيامين، الذين سموا بالعبرانيين، في الجنوب تحت إمرة رحبعام، واتخذوا من أورشليم القدس عاصمة لهم، وفي حين اعترف هؤلاء العبرانيون

تقول في سرك: حـ ـيِ ـَلي وعظم يدي اصطنعت لي الأيسار هذا. بل تذكر الله إلهك أنه المعطي لك القدرة على اكتساب الغنى حتى يثبت عهده الذي أقسم لآبائك، لإبراهيم ولإسحاق وليعقوب كاليوم هذا. وتكون إن نسيان تنسي الله إلهك فتضل في اتباع آلهة آخر وتعبدها وتسجد لها، أشهدت عليكم اليوم، أن هلاكا تهلكون. كالشعوب الذين الله مهلك من قدامكم، كذلك تهلكون جزاء أن لم تسمعوا من أمر الله إلهكم".. وفى الإصحاح التاسع من نفس النسخة والسفر 6-4: "لا تقل في سرك إذ يدفع الله إلهك إياهم من بين يديك قولا ً: لزكاتي أدخلني الله لوراثة الأرض هذه، ولفجور الشعوب هؤلاء الله قارضهم من بين يديك. ليس بزكاتك ولا بسلامة قلبك أنت داخل لوراثة أرضهم، بل لفجور الشعوب هؤلاء الله قارضهم من بين يديك وحتى يثبت الأمر الذي أقسم لآبائك لإبراهيم ولإسحاق وليعقوب. فاعلم أن ليس لزكاتك الله إلهك معطيك الأرض الحسنة هذه وراثة، إذ شعب قاسي العرف أنت"..

وفي العدد الأول من نفس النسخة والسفر والإصحاح: "كل الوصايا التي أنا موصيك اليوم تحفظون ل لامتثال حتى تبقوا وتكثروا وتدخلوا وترثوا الأرض التي أقسم الله لآبائكم".

وفي مثيلها من التوراة العبرانية: "جميع الوصايا التي أنا أوصيكم بها اليوم تحفظون لتعملوها، لكي تحيوا وتكثروا وتدخلوا وتمتلكوا الأرض التي أقسم الرب لآبائكم".. وفي الإصحاح 11عدد8، 9 تثنية: "احفظوا كل الوصايا التي أنا أوصيكم بها اليوم لكي تتشددوا وتدخلوا وتمتلكوا الأرض التي انتم عابرون إليها لتمتلكوها. ولكي تطيلوا الأيام على الأرض التي أقسم الرب لآبائكم أن يعطيها لهم ولنسلهم أرضاً تفيض لبناً وعسلا ً".

وفى سفر اللاويين 20: 22-24 "تحفظون جميع فرائضي وجميع أحكامي وتعملونها لكي لا تقذفكم ا لأرض التي أنا آت بكم إليها لتسكنوا فيها. ولا تسلكون في رسوم الشعوب التي أنا طاردهم من أمامكم، لأنهم قد فعلوا كل هذا فكرهتهم. وقلت لكم ترثون أنتم أرضهم وأنا أعطيكم إياها لترثوها أرضا تفيض لبناً وعسلا ً، أنا الرب إلهكم الذي ميزكم من الشعوب".

وليس هناك أكثر صراحة في تعليق الجواب على الشرط وتوقف التمكين – سواء الذي حدث لهم أيام موسى وما أعقبها أم في عهد سليمان – على أمر الطاعة وحفظ الوصايا، مما جاء في سفر الملوك الأ ول9: 3-9في مخاطبة الله لسليمان بن داود عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام وفيه: "قال له الرب قد سمعت صلاتك وتضرعك الذي تضرعتَ به أمامي، قدستُ هذا البيت الذي بنيتَه لأجل وضع اسمي فيه إلي الأبد وتكون عيناي وقلبي هناك كل الأيام. وأنت إن سلكت أمامي كما سلك داود أبوك بسلامة قلب واستقامةٍ، وعملت حسب كل ما أوصيتك وحفظت فرائضي وأحكامي. فإني أقيم كرسيّ ملكك على إسرائيل إلى الأبد كما كلمت داود أباك قائلا ً: لا يعدم لك رجل عن كرسيّ إسرائيل. إن كنتم تنقلبون أنتم أو أبناؤكم من ورائي ولا تحفظون وصاياي – فرائضي – التي جعلتها أمامكم بل تذهبون وتعبدون آلهة أخرى وتسجدون لها. فإني أقطع إسرائيل عن وجه الأرض التي أعطيتهم إياها، والبيت الذي قدسته لاسمي أنفيه من أمامي ويكون إسرائيل مثلا وهزأةً في جميع الشعوب. وهذا البيت يكون عبرة، كل من يمر عليه يتعجب ويصْفُرُ ويقولون: لماذا عمل الرب هكذا لهذه الأرض ولهذا البيت. فيقولون من أجل أنهم تركوا الرب إلههم الذي أخرج آباءهم من أرض مصر وتمسكوا بآلهة أخرى وسجدوا لها وعبدوها، لذلك جلب الرب عليهم كل هذا الشر".

وفي سفر التثنية 30: 15-20على لسان موسى عليه السلام: "انظر، قد جعلتُ اليوم قدامك الحياة و الخير والموت والشر. بما أنى أوصيتك اليوم أن تحب الرب إلهك وتسلك في طرقه وتحفظ وصاياه وفرائضه وأحكامه، لكي تحيا وتنمو ويباركك الرب إلهك في الأرض التي أنت داخل إليها لكي تمتلكها. فإن انصرف قلبك ولم تسمع بل غويت وسجدت لآلهة أخرى وعبدتها. فإني أنبئكم اليوم أنكم لا محالة تهلكون، لا تطيل الأيام على الأرض التي أنت عابر الأردن لكي تدخلها وتمتلكها. أشهد عليكم اليوم السماء والأرض، قد جعلت قدامك الحياة والموت، البركة واللعنة، فاختر الحياة لكي تحيا أنت ونسلك. إذ تحب الرب إلهك وتسمع لصوته وتلتصق به لأنه هو حياتك والذي يُطيل أيامك لكي تسكن

بأسفار الأنبياء لم يعترف أقرانهم من السامريين بغير أسفار موسى الخمسة: التكوين والخروج واللاويين (الأحبار) والعدد والتثنية، ولم يبال المسيح عندما بعث إلى بني إسرائيل بهذا العداء، بل راح يبشر بدعوته في مملكة السامريين على الرغم من أنه ولد وتربى وتعلم في مملكة العبرانيين، ولأجل هذا ولأنه جاء ليكمل شريعة موسى وأمر تلاميذه أن يعملوا بها إلى أن يأتي وعد الله، حمل النصارى التوراة العبرانية المسماة بالعهد القديم والمشتملة على تسعة وثلاثين سفراً، وكتاب الإنجيل المسمى بالعهد الجديد والمكون من سبعة وعشرين سفراً التي أقرها رجال اللاهوت في القرن الخامس الميلا دي من بين عشرات الكتب الأخرى المماثلة لها، حملوهما معاً ووضعوها في مجلد واحد وأطلقوا عليها (الكتاب المقدس).

على الأرض التي حلف الرب لآبائك إبراهيم وإسحاق ويعقوب أن يعطيهم إياها".
والسؤال: هل وفي بنو إسرائيل بعهودهم ومواثيقهم؟ وهل نفذوا تعاليم دينهم؟ وهل التزموا بأوامر أنبيائهم؟ وهل تغير حال أشياعهم – في واقعنا المعاصر – عن حال أسلافهم في الأزمان الغابرة؟.

الحقيقة الثانية
إخلال بني إسرائيل بشروط موعود الله

****

إن الجواب المنصف عن الأسئلة – السالفة الذكر – والبعيد عن كل تعصب، يدعونا لأن نسوق – لإ ثبات نقض سوادهم الأعظم لجميع المواثيق وخرقهم لجميع العهود وعصفهم بجميع الأوامر وتآمرهم على جميع الأنبياء – طرفاً مما جاء في كتبهم وعلى ألسنة رسلهم، ذلك أن ما أحدثه الله لبني إسرائيل من نعم وتمكين ومن إنجاء وتفضيل على العالمين، كان ينبغي أن يقابل بالشكر والاعتراف بـ الجميل والانكباب على عبادة الله وحده وعدم الإشراك به.
لكن ما حدث منهم كان على العكس من ذلك تماماً، فقد وقع منهم ما أحس به موسى عليه السلام وما تخوف منه، فما أن تجاوزوا معه البحر قاصدين ما اشرأبت إليه نفوسهم وتطلعت إليه أفئدتهم من دخول الأرض المقدسة، حتى تناسوا كل ما أوصاهم به ربهم على لسانه، وراحوا وهم في صحبته يؤملون أنفسهم بعبادة الأصنام، بل وشرعوا – دون ما حياء ولا استحياء – يطلبون ذلك منه، وفي ذلك يقول سبحانه: (وجاوزنا بني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون. إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون. قال أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين.. الأعراف/ 138- 140).
وبعد أن قال لهم موسى كلمته ووعظهم بأن ما يطلبونه يعد جهلا ً فاضحاً يجب أن يربئوا بأنفسهم عنه، وبعد أن أوصاهم وأرشدهم لما فيه صلاحهم، تعجل الذهاب لملاقاة ربه تحرقا وشوقا وطلبا لرضاه، واستخلف عليهم أخاه هارون ورجاه الترفق بهم ووصاه بالإصلاح وبجمع الكلمة وعدم الإ فساد، لكن أنى لهارون ولا لمئات أو حتى لآلاف من مثله أن تفلح دعوتهم مع قوم يجرى الكفر وإغاظة الرب به في نفوسهم مجرى الدم في العروق، لقد تحدثت جميع الكتب السماوية عما جرى من بني إسرائيل عقب ذلك وذكرت أنه ما أن ذهب موسى لميقات ربه حتى أعلمه سبحانه من هناك، بأن قومه اتبعوا السامري واتخذوا العجل معبوداً لهم من دون الله1، وذلك بعد أن فشلت معهم دعوة هارون، وبعد قوله لهم: (يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري.. طه/90)، وبعد أن كان جوابهم له: (لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى.. طه/91)، الأمر الذي أوقع هارون في حرج شديد مع أخيه موسى، ظناً من الأخير أن هارون قصّر في نهيهم عن عبادة العجل أو لم يحسن تنفيذ ما كلفه به كليم الله في قوله: (اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين.. الأعراف/142)، أو خشية أن يقول له موسى: (فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي.. طه/94).
وكان حاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة أنهم تورعوا عن زينة القبط فألقوها عنهم وعبدوا العجل! وذلك بعد أن صاغوه من الذهب والحلي الذي استلبوه من مصر واصطحبوه معهم، وكان هارون قد أشار عليهم أن يلقوا به في حفرة فيها نار فيجعلونه سبيكة واحدة حتى إذا رجع موسى عليه السلام رأى فيه ما يشاء2، لكن كان ما حكاه القرآن في قوله سبحانه: (فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً

(1) ينظر في غير آي القرآن سفر التثنية 9: 11-19.
(2) ينظر تفسير ابن كثير 3/165- 169.

قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً)، أي:
أما وعدكم على لساني، كل خير في الدنيا والآخرة وحسن العاقبة كما شاهدتم من نصرته إياكم على عدوكم وإظهاركم عليه وغير ذلك من أيادي الله، وقيل هو ما وعدهم به سبحانه من الوصول إلى جانب الطور الأيمن، وما بعد ذلك من الفتوح في الأرض والمغفرة لمن تاب وآمن، وغير ذلك مما وعد الله تعالى أهل طاعته، (أفطال عليكم العهد)، بنسيان ما سلف من نعمه وما بالعهد من قدم، (أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي.. طه/86) 1، وكان الغضب الذي أصابهم بإرادتهم وافترائهم، أن أذلهم الله ولم يقبل منهم توبة حتى يقتل بعضهم بعضاً كما قال تعالى: (فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم.. البقرة/54).
وجاءت تصريحات التوراة والإنجيل والقرآن بعبادة القوم ومن تلاهم من الأبناء والأحفاد لغير الله، وبقتلهم الأنبياء بغير حق، وبنقضهم المواثيق التي أخذها الله عليهم في معظم فترات حياتهم، مما يعنى أن ما حُكي عنهم في هذا الصدد، هو مما لا يستطيعون إنكاره أو تكذيبه، وهو عينه الذي أدي بهم إلى إيقاع وعيد الله بهم من تشتيت ومحق كانوا هم السبب فيه.
ففي سفر الملوك الثاني 17: 11- 20 "عملوا أموراً قبيحة لإغاظة الرب. وعبدوا الأصنام التي قال الرب لهم عنها لا تعملوا هذا الأمر. وأشهد الرب على إسرائيل وعلى يهوذا – أي بنيهما – عن يد جميع الأنبياء وكل راء قائلا: ارجعوا عن طرقكم الردية واحفظوا وصاياي – فرائضي – حسب كل الشريعة التي أوصيت بها آباءكم والتي أرسلتها إليكم عن يد عبيدي الأنبياء. فلم يسمعوا بل صلبوا أقفيهم كأقفية آبائهم الذين لم يؤمنوا بالرب إلههم. ورفضوا فرائضه وعهده الذي قطعه مع آبائهم وشهاداته التي شهد بها عليهم، وساروا وراء الباطل وصاروا باطلا ً وراء الأمم الذين حولهم الذين أمرهم الرب أن لا يعملوا مثلهم. وتركوا جميع وصايا الرب إلههم وعملوا لأنفسهم مسبوكات عجلين وعملوا سواريَ وسجدوا لجميع جند السماء وعبدوا البعل. وعبّروا بنيهم وبناتهم في النار وعرفوا عرافة وتفاءلوا وباعوا أنفسهم لعمل الشر في عيني الرب لإغاظته. فغضب الرب جداً على إسرائيل ونحاهم من إمامه ولم يبق إلا سبط يهوذا وحده. ويهوذا أيضا لم يحفظوا وصايا الرب إلههم بل سلكوا في فرائض إسرائيل التي عملوها. فرذل الرب كل نسل بني إسرائيل وأذلهم ودفعهم ليد ناهبين حتى طرحهم من أمامه"، فهل بعد تحدي الرب وإغاظته وإعلان الكفر به وعبادة العجل والأصنام وجند السماء وغير ذلك من دونه، من ذنب؟!.
وعلى لسان موسى كليم الله ورد في سفر التثنية 9: 23، 24 "عصيتم قول الرب إلهكم ولم تصدقوه ولم تسمعوا لقوله. قد كنتم تعصون الرب منذ يوم عرفتكم"، وفيه31: 27-30 يقول: "إني أنا عارف تمردكم ورقابكم الصلبة، هو ذا وأنا بعد ُ حيّ ٌ معكم، اليوم قد صرتم تقاومون الرب، فكم بالحريّ بعد موتي. اجمعوا إليّ كل شيوخ أسباطكم وعرفائكم لأنطق في مسامعهم بهذه الكلمات وأشهد عليكم السماء والأرض .لأني عارف أنكم بعد موتى تفسدون وتزيغون عن الطريق ألذي أوصيتكم به، ويصيبكم الشر في آخر الأيام لأنكم تعملون الشر أمام الرب حتى تغيظوه بأعمال أيديكم. فنطق موسى في مسامع كل جماعة إسرائيل بكلمات هذا النشيد إلى تمامه"، وأقام عليهم بذلك حجة الله.
وعلى لسان عيسى روح الله جاء في إنجيل متى 23: 31-33 "أنتم تشهدون على أنفسكم أنكم أبناء قتلة الأنبياء . فاملئوا أنتم مكيال آبائكم. أيها الحيات أولاد الأفاعي كيف تهربون من دينونة جهنم".
وما بين هذين النبيين من أولي العزم، من زمن امتد بهم عشرات القرون، وضم خلاله مئات بل آلاف ا لأنبياء، (كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون.. المائدة / 70).
ونذكر مما ورد على لسان بعض أولئك الأنبياء وفي أسفارهم ما جاء في سفر يشوع 7: 10-11من قول الله له: "قال الرب ليشوع: قم لماذا أنت ساقط على وجهك. قد أخطأ إسرائيل بل تعدوا عهدي الذي أمرتهم به بل أخذوا من الحرام بل سرقوا بل أنكروا".. وسفر الملوك الأول 19: 9-10من قول الرب لإيليا (إلياس عليه السلام):
"ما لك هاهنا يا إيليا. فقال: قد غ ِر ْت ُ غيرة للرب إله الجنود، لأن بني إسرائيل قد تركوا عهدك ونقضوا مذابحك وقتلوا أنبياءك بالسيف، فبقيت أنا وحدي وهم يطلبون نفسي ليأخذوها".. وسفر

(1) السابق 3/ 166 وروح المعاني للآلوسي 16/ 358 من المجلد التاسع.

إشعياء وعلى لسانه 28: 14-15 في عبارات تحمل البشارة بمقدم النبي محمد منقذ البشرية من شرورهم: "اسمعوا كلام الرب يا رجال الهُزأ ولاة هذا الشعب الذي في أورشليم. لأنكم قلتم قد عقدنا عهداً مع الموت وصنعنا ميثاقاً مع الهاوية، السوط الجارف إذا عبر لا يأتينا لأننا جعلنا الكذب ملجأنا وبالغش استترنا".. وفيه 59: 2- 4، 6- 9: "آثامكم صارت فاصلة بينكم وبين إلهكم وخطاياكم سترت وجهه عنكم حتى لا يسمع. لأن أيديكم قد تنجست بالدم وأصابعكم بالإثم، شفاهكم تكلمت بالكذب ولسانكم يلهج بالشر. ليس من يدعو بالعدل وليس من يحاكم بالحق يتكلمون على الباطل ويتكلمون بـ الكذب.. أعمالهم أعمال إثم وفعل الظلم في أيديهم. أرجلهم إلى الشر تجري وتسرع إلى سفك الدماء الزكي، أفكارهم أفكار إثم، في طرقهم اغتصاب وسحق. طريق السلام لم يعرفوه وليس في مسالكهم عدل، جعلوا لأنفسهم سبلا ً معوجة كل من يسير فيها لا يعرف سلاماً. من أجل ذلك ابتعد الحق عنا ولم يدركنا العدل".. وسفر إرميا 2: 4-5-7-9-10 وعلى لسانه في عبارات تحمل أيضاً الإشارة و البشارة بمقدم رسول الرحمة وخاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه ونبي من هم أهل لحمل رسالة الله وتنفيذ أوامره ووصاياه:

"اسمعوا كلمة الرب يا بيت يعقوب وكل عشائر بيت إسرائيل.. ماذا وَجد فيّ آباؤكم من جور حتى ابتعدوا عني وساروا وراء الباطل وصاروا باطلا ً.. وأتيت بكم إلى أرض بساتين لتأكلوا ثمرها وخيرها فأتيتم ونجستم أرضي وجعلتم ميراثي رجساً.. لذلك أخاصمكم بعد ُ يقول الرب، وبني بنيكم أ ُخاصم. فاعبروا جزائر كِتيِّم وانظروا وأرسلوا إلى قيدار"، يعني جد النبي محمد من جهة إسماعيل، كناية عن إرساله وتحول النبوة إليه بدل بني إسرائيل، و(كِتيِّم): اسم بئر زمزم، سميت بذلك لأنها لما اندفنت بعد جرهم، صارت مكتومة حتى أظهرها عبد المطلب، وفي حديث زمزم: (إن عبد المطلب رأى في المنام قيل: احفر كِتيِّم بين الفرث والدم)1.

وفي إرميا 3: 20-21 حكاية عن جرائمهم: "حقاً إنه كما تخون المرأة قرينها هكذا خنتموني يا بيت إسرائيل يقول الرب..عوّ َجوا طريقة َهم، نسوا الرب إلههم"، وفي 5: 19- 21-22-23-25منه: "تقولون لماذا صنع الرب إلهنا بنا كل هذه، نقول لهم كما أنكم تركتموني وعبدتم آلهة غريبة في أرضكم، هكذا تعبدون الغرباء في أرض ليست لكم.. اسمع هذا أيها الشعب الجاهل والعديم الفهم الذين لهم أعين ولا يبصرون، لهم آذان ولا يسمعون. أإياي لا تخشون.. وصار لهذا الشعب قلب عاص ومتمرد، عصوا ومضوا.. آثامكم عكست هذه وخطاياكم منعت الخير عنكم".. وفي 19: 5-6- 7-11-15 منه:

"وبنوا مرتفعات للبعل ليحرقوا أبنائهم بالنار – يعني جهنم لأنهم تسببوا لهم في ذلك – محرقات للبعل الذي لم أوص ولا تكلمت به ولا صعد على قلبي. لذلك ها أيام تأتي.. أنقض مشورة يهوذا وأورشليم في هذا الموضع وأجعلهم يسقطون بالسيف أمام أعدائهم وبيد ظالمي نفوسهم وأجعل جثث هم أك ْلا ً لطيور السماء ولوحوش الأرض.. هكذا أكسر هذا الشعب وهذه المدينة كما يُكس َر وعاء الفخاري بحيث لا يمكن جبره بعد، وفي توفة يدفنون حتى لا يكون موضع للدفن.. ها أنذا جـ الب على هذه المدينة وعلى كل قراها كل الشر الذي تكلمت به عليها لأنهم صلبوا رقابهم فلم يسمعوا لكلامي".

وفي سفر حزقيال 22: 3-9، 12، 15، 16خطاباً لمن سكن منهم أورشليم القدس: "أيتها المدينة السافكة ُ الدم.. الصانعة أصناماً لنفسها لتتنجس بها. قد أثمت ِ بدمك الذي سفكت ِ، ونجست ِ نفسك بأصنامك التي عملت ِ، وقـ ـر ّبت ِ أيامكِ وبلغت سنيّكِ فلذلك جعلتكِ عاراً للأمم وسخرة لجميع الأراضي. القريبة إليك والبعيدة منك يسخرون منك يا نجسة الأمم يا كثيرة الشغب. هو ذا رؤساء إسرائيل، كل واحد حسب استطاعته كانوا فيك ِ لأجل سفك الدم. فيك أهانوا أباً وأماً، في وسطك عاملوا الغريب بالظلم، فيك ِ اضطهدوا اليتيم والأرملة.ازدريتِ أقداسي ونجست ِ سبوتي. كان فيك أناس وُشاةٌ لسفك الدم وفيك أكلوا على الجبال، في وسطك عملوا رذيلة.. فيك أخذوا الرشوة لسفك الدم، أخذتِ الربا والمرابحة2 وسلبت أقرباءكِ بالظلم ونسيتني.. أبددك ِ بين ا

---

(1) لسان العرب: مادة (كتم) ص 3824من المجلد الخامس ط دار المعارف.

(2) وإليه الإشارة بقوله تعالى: (وأخذهم الربا وقد نهوا عن وأكلهم أموال الناس بالباطل ..النساء/161".. أليس هذا ما يمثل واقعهم الذي على إثره ستكون النهاية الأليمة كما كانت من قبل؟.

لأمم وأذرّيك في الأراضي وأزيلُ نجاستك منك ِ. وتتدنسين بنفسك أمام عيون الأمم، وتعلمين أني أنا الرب".. وبداهة أن يكون الكلام لمن يقطنونها من بني إسرائيل.
وفي سفر دانيال وعلى لسانه9: 4-9، 11 جاء قوله حكاية على لسان حال من أرسل إليهم من بني إسرائيل: "صليت ُ إلى الرب إلهي، واعترفت ُ وقلت ُ: أيها الرب.. أخطأنا وأثمنا وعملنا الشر وتمردنا وحدنا عن وصاياك وعن أحكامك. وما سمعنا من عبيدك الأنبياء.. كل إسرائيل قد تعدى على شريعتك وحادوا لئلا يسمعوا صوتك، فسكبت َ علينا اللعنة والحلف المكتوب في شريعة موسى عبد الله لأننا أخطأنا إليه".. وفي سفر هوشع وعلى لسانه أيضاً 4: 3-1: "اسمعوا قول الرب يا بني إسرائيل، إن للرب محاكمة مع سكان الأرض، لأنه لا أمانة ولا إحسان ولا معرفة الله في الأرض. لعنٌ وكذب وقتل وسرقة وفسق يعتنقون، ودماء تلحق دماء. لذلك تنوح الأرض وي َذبُل كل من سكن فيها مع حيوان البرية وطيور السماء، وأسماك البحر أيضا ً ت َنتزع".
وفي سفر عاموس2: 4 "رفضوا ناموس الله ولم يحفظوا فرائضه وأضلتهم أكاذيبهم التي سار آباؤهم ورائها".. وفي سفر يونان بن أمتّاي (يونس بن متى) عليه السلام 1: 1 قال له الرب: "قم اذهب إلى نينوى المدينة العظيمة وناد عليها لأنه صعد شرهم أمامي".. وفي سفر ميخا 3: 9-11وعلى لسانه: "اسمعوا هذا يا رؤساء بيت يعقوب وقضاة بيت إسرائيل الذين يكرهون الحق ويعوجون كل مستقيم. الذين يبنون صهيون1بالدماء وأورشليم بالظلم. رؤساؤها يقضون بالرشوة، وكهنتها يعلمون بالأجرة".
وفي سفر حبقوق 2: 12 "ويل للباني مدينة بالدماء وللمؤسس قرية بالإثم".. وفي سفر صَفَنْيَا 3: 1-4 "ويل للمتمردة المنجسةِ المدينة الجائرة. لم تسمع الصوت لم تقبل التأديب لم تتكل على الرب لم تتقرب إلى إلهها. رؤساؤها في وسطها أسود زائرة قضاتها ذئاب مساء لا يبقون شيئاً إلى الصباح.. كهنتها نجسوا القدس خالفوا الشريعة".. وفي سفر زكريا: 7: 9-12، 14 "اقضوا قضاء الحق واعملوا إحسانا ورحمة، كل إنسان مع أخيه. ولا تظلموا الأرملة ولا اليتيم ولا الغريب ولا الفقير ولا يفكر أحد منكم شراً على أخيه في قلبكم. فأبوا أن يُصغوا وأعطوا كتفاً معاندة وثق ّلوا آذانهم عن السمع. بل جعلوا قلبهم ماساً لئلا يسمعوا الشريعة والكلام الذي أرسله رب الجنود بروحه عن يد الأنبياء الأولين فجاء غضب عظيم من عند رب الجنود.. وأعصفهم إلى كل الأمم الذين لم يعرفوهم، فخربت الأرض ورائهم لا ذاهب ولا آئب فجعلوا الأرض البهجة خراباً".. وفي سفر ملاخي 2: 8، 9، 17 وعلى لسانه: "أما أنتم فحدتم عن الطريق وأعثرتم كثيرين بالشريعة.. فأنا أيضا صيرتكم محتقرين ودنيئين عند كل الشعب كما أنكم لم تحفظوا طرقي بل حابيتم في الشريعة.. لقد أتعبتم الرب بكلامكم وقلتم بم أتعبناه، بقولكم كل من يفعل الشر فهو صالح في عيني الرب وهو يسرّ بهم. أو أين إله العدل"، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.
وعلى غرار ذلك وردت آيات كثيرة توضح هي الأخرى نقض بني إسرائيل للمواثيق والعهود، بل وتنص على كثير مما تضمنته تلك المواثيق من بنود كم كانت ستعود عليهم بالخير والنفع في أمور دينهم ودنياهم وأخراهم لو أنهم أقاموا حكم الله فيها، لكن لتوليهم وعصيانهم عوقبوا من الله بما استحقوا، نذكر من ذلك قوله تعالى: (وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون. ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين. ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين.. البقرة/ 63- 65)، وقوله: (وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً وذي القربى واليتامى والمساكين وقو لا للناس حسناً وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلا ً منكم وأنتم معرضون. وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون. ثم أنتم هؤلا ء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم.. البقرة/ 83- 85)، وقوله: (وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا في قلبوهم العجل

(1) صهيون: اسم رابية في القدس القديمة قرب أورشليم كان قد أقام عليها اليبوسيون الكنعانيون العرب حصناً قبل ظهور بني إسرائيل بحوالي ألفي عام، ثم اتخذها داود عليه السلام حصناً بعد أن انتزعها من اليبوسيين وأقام عليه وبنى حولها مدينة، ثم أطلقت التسمية على منظمة إرهابية أسسها يهود روسيا بعد منتصف القرن الماضي وسمي أعضاؤها (عشاق صهيون) و(أحباء صهيون)، وهي حركه تدعو إلى إقامة مجتمع يهودي مستقل في فلسطين بعد احتلالها، ينظر (المعجم الوجيز) ص 372و(القدس مدينة السلام) ص 42.

بكفرهم.. البقرة/ 93)، وقوله:
(ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً وقلنا لهم لا تعدوا في السبت وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً. فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا ً. وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً. وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم.. النساء/ 154- 157)، وقوله: (ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل. فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم.. المائدة/12-13)، والآيات في ذلك في القرآن وفي الأ سفار أكثر من أن تعد، وحسبنا منها ما ذكرنا.
فماذا يُنتظر لقوم هذا حالهم مع جميع من أرسلوا إليهم؟!، وأنى لأناس لم يحققوا في أنفسهم فعل الشرط، أن يتحقق لهم من قِبل الرب، جوابه وجزاؤه؟.

****

الحقيقة الثالثة
موعود الله لبني إسرائيل كان موقوتاً بفترة زمنية محددة
****

وكما كان وعد الله لبني إسرائيل مشروطا بوصايا وبعهود لم يصونوها، ومنوطا بتعاليم ومواثيق لم يراعوها.. فقد كان مرهوناً كذلك وموقوتا بفترة زمنية محددة، شاء الله لها أن تختم بنبي الله عيسى عليه السلام الذي تآمر بنو إسرائيل على قتله هو الآخر وصلبه – على نحو ما تآمروا على قتل غيره – لولا أن رفعه الله إليه وألقى شبهه على غيره.
لذا كان مجيء عيسى عليه السلام – بعد أن تناوب عليهم ومن بني جلدتهم لكن دون جدوى عدد غير قليل من الأنبياء والمصلحين – كان مجيئه محاولة أخيرة لإرجاعهم إلى سابق عهدهم حتى ينزعوا إلى صبغة الله، وإلى حكمه وشريعته، ولا يرغبوا عن ملة آبائهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وتمهيداً في الوقت ذاته لمرحلة جديدة يتواصل عندها وحي السماء إلى الأرض، وتستمر بالتالي إلى الأبد، الأ مر الذي ينذر بخطورة ما وصل إليه القوم من ختم على القلوب من جراء غلقها أمام كل خير، ويؤذن بفقدان الأمل في إرجاع الأمر على يد هؤلاء مرة ثانية إلى ما كان عليه، ويعنى كذلك – وهذا هو الأ هم – أن انتهاء مدتهم التي قدرها الله لهم لوراثة الأرض والنبوة له ما يبرره.
ويفسر لنا ذلك – أعني فقدان الأمل في إصلاح بن إسرائيل – سر تركيز دعوة عيسى عليه السلام على التبشير بنبي آخر الزمان، ففي إنجيل يوحنا 14: 15-18، 25، 29، 30 وما بعدها يقول لحوارييه: "إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي. وأنا أطلب من الأب فيعطيكم معزياً آخر ليمكث

معكم إلى الأبد. روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه، وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم ويكون فيكم. لا أترككم يتامى.. بهذا كلمتكم وأنا عندكم. وأما المعزى الروح القدس[1] الذي سيرسله الأب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم.. وقلت لكم الآن قبل أن يكون حتى متى كان تؤمنون. لا أتكلم أيضاً معكم كثيراً لآن رئيس هذا العالم يأتي وليس له فيّ شيء".

وفيه 15: 26-27: "متى جاء المعزي الذي سأرسله أنا إليكم من الآب روح الحق الذي من عند الآب ينبثق فهو يشهد لي. وتشهدون أنتم أيضاً لأنكم معي من الابتداء".. وفيه على لسان المسيح عليه السلام 16: 5-8، 12-14 "أما الآن فأنا ماض إلى الذي أرسلني وليس أحد منكم يسألني أين تمضي. لكن لأني قلت لكم هذا قد ملأ الحزن قلوبكم. لكني أقول لكم الحق إنه خير لكم أن انطلق لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزى ولكن إن ذهبت أرسله إليكم. ومتى جاء ذاك يوبخ العالم.. إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية. ذاك يمجدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم"[2].

فقول عيسى عليه السلام: إن الآب "يعطيكم معزياً آخر"، لا يعني إلا أن يكون ثانٍ لأول يكون قبله، ومعلوم أنه لم يكن معهم في حياة المسيح إلا هو، ولم يأت بعده سوى النبي محمد r، فتعين أن يكون هو المراد بقول عيسى عليه السلام.. وقوله: "ليمكث معكم إلى الأبد"، إنما يكون لما يدوم ويبقى معهم إلى آخر الدهر، وبداهة أنه لم يُرِد بقاء ذاته، فعلم أنه أراد بقاء شرعه وأمره، وهذا يبين أن المبشر به المشار إليه بقول عيسى: (معزياً آخر)، صاحب شرع لا ينسخ، بل يبقى إلى الأبد بخلاف المتحدِث بذلك وهو عيسى نفسه الذي أعلن عن انتهاء مهمته التي أوكلها إلى صاحب البشرى r، كما يبين قول عيسى عليه السلام: (معزياً آخر)، أن هذا الآخر المزمع مجيئه لم يكن معهم في حياته عليه السلام وإنما يكون بعد ذهابه وتوليه عنهم.

أما أنه "لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به"، فهو ما ترجم له وفسره ما جاء في الكتاب العزيز: (وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى.. النجم/ 3، 4)، وذلك كله – بالطبع – مما لا ينطبق إلا على محمد عليه سلام الله، صوناً لقول المسيح عيسى عليه السلام من الخلل أو الكذب، أو من ترك قومه (يتامى) – على حد قوله السالف الذكر – بغير نبي يتكفل بأمورهم، إذ هو صلوات الله عليه، القائل عن نفسه فيما رواه أحمد في مسنده 5/ 262: (أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى أخي عيسى)، ومعلوم بالضرورة أن دعوته تعم أمته على نحو ما تعم كل من آمن من أهل الكتاب بدعوته.

أما كون العالم "لا يستطيع أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه"، فلكونه عليه السلام "بعث بالتوحيد في زمن غلب فيه الجهل وعبادة الأوثان وبيوت النار والقول بالثالوث، وهو غاية المنافاة والبعد عما جاء به، ولذلك قال من بعث فيهم من أهل الشرك: (أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب.. ص/ 5)" كذا ذكره القرافي ص203.

وقوله "لا أتكلم أيضاً معكم كثيراً، لأن رئيس هذا العالم – وفي بعض النسخ (أركون العالم) – يأتي وليس له فيّ شيء"، إنما هو بشارة تعني ضمن ما تعني، أنه سيأتي بعد المسيح نبي آخر الزمان – وليس إلا محمداً r – فتكون له الكلمة النافذة، ويسود العالم باطناً وظاهراً ويطاع في السر والعلانية في محياه وبعد مماته، في جميع الأعصار وأفضل الأقاليم شرقاً وغرباً، يُظهر توحيد الرسل قبله

---

(1) هذا نص ما جاء في الطبعات المترجمة من اليونانية، لكن اسم المبشر به في طبعات 1821م، 1823، 1831، 1844، وترجمة الخورى يوسف عون جاء بلفظ (روح الحق) و(فارقليط)، أو(بارقليط) والأخيران على ما تقتضيه الترجمة الحرفية اليونانية يعنيان: (أحمد).. كما تعني كلمة (المعزى): المعلم، وهي مترجمة عن اللفظ اليوناني (بيركلوطوس) أو (بريقليتوس) وليس (باراكلي طوس) بالألف، وثمة فرق، إذ الأولى وقد عربت بلفظ (فارقليط) تعني كما قلنا: (أحمد)، وهو المطابق لما جاء في قول الله سبحانه عن عيسى: (ومبشراً برسول يأتي من بعد اسمه أحمد.. الصف/6).. وقد ذكر الشيخ عبد الله الترجمان – وكان مسيحياً وأسلم سنة 823 تقريباً – في كتابه (تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب) أن هذا اللفظ كان سبباً في إسلامه، فقد خدم عشر سنين عند قسيس يدعى (نقلاومرتيل)، وعندما سأله عن المقصود بهذا اللفظ قال له: نبي المسلمين، ولما سأله ثانية: لم لا تسلم إذن؟ تعلل له بأعذار واهية، ساقها الترجمان في كتابه المذكور.. وصدق الله القائل: (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء.. الأنعام/ 125).. وجمهورهم أنه المخلص، ولا غرو فـ (محمد) هو بالفعل مخلص الناس من الكفر إلى الإيمان ومخرجهم من الظلمات إلى النور، كما أنه المعلم لكل شيء، حتى قال يهودي لبعض الصحابة فيما أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي و النسائي وابن ماجة وأحمد: "لقد علمكم نبيكم كل شيء حتى الخراءة"، فقال: "أجل، لقد نهانا أن يستقبل أحدنا القبلة ببول أو غائط"، ناهيك عن إتيانه بجميع الأعمال الربانية والأخلاق المرضية، وتحصيله جميع مصالح الدين والدنيا والآخرة.

(2) ينظر شرح هذه البشارات (إظهار الحق) 1185/4- 1213، و(محمد نبي الإسلام) ص 36-39، و(الجواب الفسيح) 816/2.

ويصدقهم فيما بعثوا به وله وينوّه بذكرهم وتعظيمهم.. وأنه سيثبت التوحيد في قلوب الناس جميعاً ويعلمهم كلمة التقوى وشهادة الحق وأن الأمر كله لله، وهو في معنى قوله تعالى في مخاطبة محمد r: (ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون.. آل عمران/ 128)، وقوله: (قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي.. الأنعام/ 50)، وهذا يعني ضمناً تنزيه عيسى عليه السلام مما نسب إليه من ربوبية أو ألوهية.
أما توبيخه صلوات الله عليه وسلامه للعالم فماثل في توبيخ من ذكرنا لكونه جاء وقد وجد الجميع ضالين، وفي هذا غاية التعظيم والمدح له والتأكيد على اتباعه صلوات الله عليهم أجمعين.
ومصداق ذلك فيما جاء في كتب القوم ما ورد في سفر التكوين 49: 10 "لا يزول قضيب من يهوذا ومشترع من بين رجليه حتى يأتي شيلون وله يكون خضوع شعوب"، أي يزول الملك من اليهود بأسرهم بعد فترة من الزمان وعلى وجه التحديد بعد تمام حكم موسى وعيسى – عليهما السلام – وإلى أن يتم ذلك فسيظل ملك اليهود في سلالة يهوذا أكبر أبناء سيدنا يعقوب عليه السلام، وسيكون آخر عهدهم بالمـُلك والنبوة على يد (المشترع) إشارة إلى المسيح عيسى – عليه السلام – فإذا جاء نبي الإسلام (شِيلون) الذي استعلن – بالفعل – من جبال بني هاشم التي كان يتحنث فيها ويتعبد، والمسماة والمعروفة بجبال فاران1، والذي اجتمعت إليه – حقاً – بعد انتظار، شعوب العالم، والذي خضعت له – صدقاً – عن طريق الفتوحات سائر الأمم.. يزول ملك بني إسرائيل ويبطل العمل بالتوراة2.. وكذا ما ورد في لسان دانيال في سفره وتحديداً الإصحاح الثاني من 31: 45 وقد سأله (بختنصر) عن تأويل رؤيا رآها ثم نسيها فقال:
"رأيتَ أيها الملك صنماً عظيماً قائماً بين يديك. رأسه من ذهب وساعداه من الفضة وبطنه وفخذاه من النحاس. وساقاه من حديد ورجلاه من خزف. ورأيتَ حجراً لم يقطعه يد إنسان قد جاء وصك ذلك الصنم فتفتت وتلاشى وعاد رفاتاً. ثم نسفته الرياح فذهب وتحول ذلك الحجر فصار جبلاً عظيماً حتى ملأ الأرض كلها. هذا ما رأيت أيها الملك". فقال بختنصر: صدقت فما تأويلها؟
قال دانيال:"أنت الرأس الذي رأيته من الذهب. ويقوم بعدك ولداك اللذان رأيت من الفضة وهما دونك ويقوم بعدهما مملكة أخرى وهي دونهما وهي التي تشبه النحاس. والمملكة الرابعة تكون قوية مثل الحديد الذي يدق كل شيء. وأما الرجلان اللتان رأيتَ من خزف فمملكة ضعيفة وكلمتها متشتتة. وأما الحجر الذي رأيت قد صك ذلك الصنم العظيم ففتته، فهو نبي يقيمه الله إله السماء والأرض من قبيلة شريفة قوية، فيدق جميع ملوك الأرض وأممها حتى تمتلئ منه الأرض ومن أمته، ويدوم سلطان ذلك النبي إلى انقضاء الدنيا. فهذا تعبير رؤياك أيها الملك".
فقد أخبر دانيال عن الله تعالى أن نبينا r هو خاتم الأنبياء ودولته خاتمة الدول، وقد وضّح الأستاذ إبراهيم خليل – الذي كان قساً فأسلم في القرن الماضي – تحقق هذه النبوءة التي أخبر بها دانيال، كما عقب شيخ الإسلام ابن تيمية – في جوابه الصحيح لمن بدل دين المسيح 4/ 4 – على كلام دانيال قائلاً:
"فهذا بعث محمد r لا بعث المسيح، فهو الذي بـُعث بشريعة قوية دون جميع ملوك الأرض وأممها، حتى امتلأت الأرض منه ومن أمته، في مشارق الأرض ومغاربها، وسلطانهم قائم لا يقدر أحد أن يزيله كما زال ملك اليهود وزال ملك النصارى عن خيار الأرض وسلطانها".
وابتناء على كل ما سبق فإرسال محمد بن عبد الله عليه سلام الله، يُعد من دلائل صدق عيسى وموسى – عليهما السلام – ولو لم يظهر لبطلت نبوتهما بل ولبطلت نبوات الأنبياء، لتبشيرهم جميعا بنبوته عليه السلام، وذلك قوله تعالى: (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين.. آل عمران/ 81).

(1) أي (مكة) بالعبرانية كذا في معجم البلدان للحموي 6/ 407، وتنظر البشارات التي جاءت بهذا الصدد في إظهار الحق 4/ 1134، 1135، و(محمد نبي الإسلام) ص 9، 25.. فقط أود الإشارة هنا إلى أن ما ورد في سفر حبقوق3: 3-5، 10 طبعة لندن لسنة 1848 وطبعة بيروت لسنة 1884 وكذا النسخ القديمة كان نصه: "جاء القدوس من جبل فاران. لقد أضاءت السماء من بهاء محمد وامتلأت الأرض من حمده. شاع منظره مثل النور يحوط بلاده بعزة. تسير المنايا أمامه وتصحب سباع الطير أجناده.. يا محمد أدنو لقد رأتك الجبال فارتاعت"، فهل بعد التصريح باسمه r من دليل.
(2) ينظر هداية الحيارى ص 97 وإظهار الحق 4/ 1138، 1142 و(محمد نبي الإسلام) ص 5 و(في الدعوة الإسلامية بين غير المسلمين) ص121، 122 وكلاهما للطهطاوي.

فظهور نبوته r تصديق لنبوآتهم وشهادة لها بالصدق، وقد أشار سبحانه إلى هذا المعنى في قوله: (بل جاء بالحق وصدق المرسلين.. الصافات/37)، فإن المرسلين بشروا به وأخبروا بمجيئه، فمجيئُه تصديق لهم إذ هو تأويل ما أخبروا به، كما أن تصديقه المرسلين شهادة منه بصدقهم وإيمان بهم، وعليه فصدقهم كان بمجيئه وبشهادته، ومثل هذا قول المسيح لبني إسرائيل: (إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعد اسمه أحمد.. الصف/ 6).

وهذا حق.. فإن التوراة لما بشرت بعيسى عليه السلام وبنبوته، كان نفس ظهوره تصديقاً للمرسلين من قبله، ثم لما بشر عيسى عليه السلام برسول يأتي من بعده اسمه (أحمد) كان ظهور هذا الأخير المبشر به تصديقاً لعيسى، كما كان ظهوره تصديقاً كذلك للتوراة، فعادة الله في رسله أن السابق يبشر باللاحق، واللاحق يصدق السابق1، والله سبحانه لا يخلف وعده ولا يكذب خبره2، وفي تقرير هذا المعنى ورد في إنجيل يوحنا 5: 45- 47 ما نصه: "لا تظنوا أني أشكوكم إلى الآب، يوجد الذي يشكوكم وهو موسى الذي عليه رجاؤكم. لأنكم لو كنتم تصدقون موسى لكنتم تصدقونني لأنه هو كَتَبَ عني. فإن كنتم لستم تصدقون كتُبَ ذاك فكيف تصدقون كلامي".

وقد أدرك هذه الحقيقة كل من آمن من أحبار اليهود وقساوسة النصارى3 وغيرهم من دعاة الحق و الخير والصلاح والإصلاح4، بل وشهد لهذه الحقيقة ذاتها كل من أقر بنبوته ممن لم يدركه، أو سمع به وكان مانعه من الإيمان به الحقد والبغي والحسد، أو خوف ضياع الملك والسيادة5.

ونذكر من ذلك فيما يخص قضية انتقال موعود الله لبني إسماعيل، ما جاء عن يونس بن بكير عن سلمة بن يسوع عن جده قال: قال يونس، وكان نصرانياً فأسلم: إن رسول الله r كتب إلى أهل نجران:

(بسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، من محمد النبي رسول الله إلى أسقف نجران وأهل نجران، سلم أنت، إني أحمد إليكم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، أما بعد:– فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد، فإن أبيتم فالجزية فإن أبيتم فقد آذنتكم بحرب.. و السلام)، فلما أتى الأسقف الكتاب وقرأه فظع به وذُعر ذُعراً شديداً، فبعث إلى رجل من أهل عمان يقال له شرحبيل بن وداعة، وكان من همدان، ولم يكن أحد يدعى إلى معضلة قبله، فدفع الأسقف كتاب رسول الله r إلى شرحبيل فقرأه، فقال الأسقف: ما رأيك يا أبا مريم؟ فقال شرحبيل: قد علمت ما وعد الله إبراهيم في ذرية إسماعيل من النبوة6.. إلى آخر ما جرى بينهما.

ونظيره ما جاء عن محمد بن سعد قال: أخبرنا علي بن محمد عن أبي عبيدة بن عبد الله، وعبد الله بن محمد بن عمار بن ياسر وغيره عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: سكن يهودي بمكة يبيع بها تجارات، فلما كانت ليلة ولد رسول الله r قال في مجلس من مجالس قريش: هل كان فيكم

---

(1) وسنرى كيف بُشر إبراهيم بمحمد بن عبد الله وكيف بُشرت به هاجر، وكيف صدّق r بمجيئه وبشهادته ما أخبرا به.

(2) ينظر هداية الحيارى لابن القيم ص313، 315.

(3) ونذكر من أخبارهم: ما رواه الواقدي من أن عمر بن الخطاب سأل أبا مالك ثعلبة بن هلال وكان من أحبار اليهود، فقال: أخبرني بصفات النبي في التوراة، فقال: (إن صفته في توراة هارون التي لم تتغير ولم تتبدل هي: أحمد من ولد إسماعيل بن إبراهيم وهو آخر الأنبياء، وهو النبي العربي الذي يأتي بدين إبراهيم الحنيف، يأتزر على وسطه ويغسل أطرافه.. يولد بمكة، وهو أمي لا يكتب ولا يقرأ المكتوب، وهو الحماد يحمد الله شدة ورخاء، سلطانه بالشام.. إلخ)، [ينظر (المنتخب الجليل من تخجيل من حرف الإنجيل) لأبي الفضل المالكي السعودي و(في الدعوة إلى الإسلام) ص 80].. وقصة الراهب الذي ورد ذكره في رواية ابن عباس، حين بلغ ملك الروم كتاب رسول الله r فجمع بطارقته وعظماء دينه، وعرض عليهم الإسلام فأنكروا ذلك إنكاراً شديداً، فقال لهم: (إنما أردت اختباركم)، فقام راهب عظيم القدر فيهم وقال: (أيها الملك، إنك لتعلم أن هذا العربي هو الذي بشر به عيسى وأنه راكب الجمل الذي يجئ بعد راكب الحمار).. وذكر كلاماً طويلاً في حق النبي محمد r، فما أن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، حتى وثب عليه القوم فقطعوه بسيوفهم.. والقصة بتمامها، وخبر هرقل وتمنيه بعد أن سأل عن النبي أبا سفيان أن لو كان عنده لغسل عن قدمه، وتنبؤه بأنه سيملك موضع قدميه، وكذا مواقفه العديدة التي يقصر عنها المقام.. ذكرها تفصيلاً صاحب كتاب (في الدعوة بين غير المسلمين) ص 81-89 فليرجع إليه.

(4) فقد دخل في دينه من لا يحصى عددهم من أرباب القول والحكماء، ومن الفلاسفة والعلماء.. وينظر في ذلك كتاب (في الدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين) للمستشار محمد عزت الطهطاوي، وهو كتاب مهم في بابه وجدير بالقراءة، فقد حوى شهادة ما يربو عن 125ممن أسلموا وأماط اللثام عن أسباب وملابسات وقصص إسلامهم.

(5) ونستشهد فقط مما روي في هذا الصدد، بما جاء عن أبي هريرة من أن النبي r "أتى بيت المدارس – الذي كان اليهود يتدارسون في كتابهم – فقال: (أخرجوا إليّ أعلمكم)، فقالوا: عبد الله بن صوريا، فخلا به رسول الله فناشده بدينه.. (أتعلم أني رسول الله؟)، قال: اللهم نعم وإن القوم يعرفون ما أعرف، وإن صفتك ونعتك لمبين في التوراة، ولكن حسدوك، قال: (فما يمنعك أنت؟)، قال: أكره خلاف قومي، عسى أن يتبعوك ويسلموا فأسلم"، ينظر الوفا لابن الجوزي50/1 وسيرة ابن هشام 2/ 150].. وبخبر أم المؤمنين صفية عن أبيها حيي بن أخطب وعمها أبي ياسر، وسيأتي في نهاية الحديث عن الحقيقة السادسة.

(6) يشير – ربما – إلى قول الله لإبراهيم: "وأما إسماعيل، فقد سمعت لك فيه. ها أنذا أباركه .. إلخ"، وما جاء من مثل ذلك في حق هاجر عليها السلا م وسيأتي تفصيله.

من مولود ٍ هذه الليلة؟ قالوا: لا نعلمه، قال: انظروا يا معشر قريش وأحصوا ما أقول لكم، ولد هذه الليلة نبي هذه الأمة أحمد، وبه شامة بين كتفيه فيها شعرات 1، فتصدع القوم من مجالسهم وهم يعجبون من حديثه، فلما صاروا في منازلهم ذكروه لأهاليهم، فقيل لبعضهم: ولد لعبد الله بن عبد المطلب الليلة غلام وسماه محمداً فأتوا اليهودي في منزله، فقالوا: علمنا أنه ولد فينا غلام، فقال: أبعد خبري أم قبله؟ فقالوا: قبله واسمه محمد، فقال فاذهبوا بنا إليه، فخرجوا حتى أتوا أمه فأخرجته إليهم فرأى الشامة في ظهره فغُشي على اليهودي، ثم أفاق، فقالوا: ما لك؟ ويلك! فقال: ذهبت النبوة من بني إسرائيل وخرج الكتاب من أيديهم، ففازت العرب بالنبوة، أفرحتم يا معشر قريش؟ أما والله ليسطون بكم سطوة 2 يخرج نبؤها من المشرق إلى المغرب"3، وهذا هو دأبهم مع الحق وأهله، يعرفون الحق ويكيدون لأهله بغياً وحسداً من عند أنفسهم وخوفاً على زوال رياستهم وأموالهم غير مكتفين بكفرهم به.

وفي إنجيل متى 21: 33وما بعدها "كان إنسان ٌ رب ٌ بيت ٍ غرس كرماً وأحاطه بسياج وحفر فيه معصرة وبنى بُرجاً وسلمه إلى كرامين وسافر. ولما قرب وقت الأثمار أرسل عبيده إلى الكرامين ليأخذ أثماره، فأخذ الكرامون عبيده وجلدوا بعضاً وقتلوا بعضاً ورجموا بعضاً. ثم أرسل أيضاً عبيداً آخرين أكثر من الأولين، ففعلوا بهم كذلك. فأخيراً أرسل إليهم ابنه قائلا ً: يهابون ابني. وأما الكرامون فلما رأوا الابن قالوا فيما بينهم هذا هو الوارث، هلموا نقتله ونأخذ ميراثه. فأخذوه وأخرجوه خارج الكرم وقتلوه. فمتى جاء صاحب الكرم ماذا يفعل بأولئك الكرامين. قالوا له: أولئك ا لأردياء، يهلكهم هلاكاً ردياً ويسلم الكرم إلى كرامين آخرين يعطونه الأثمار في أوقاتها. قال لهم يسوع: أما قرأتم قط في الكتب. الحجر الذي رفضه البناءون، هو قد صار رأس الزاوية من قبل الرب، كان هذا وهو عجيب في أعيننا. لذلك أقول لكم: إن ملكوت الله ي ُنزع منكم وي ُعطى لأمة تعمل أثماره".

فالكرم – كما هو بيّن في هذا المثل المضروب ومؤيد بنصوص أخرى في أسفار العهد القديم والعهد الجديد من الكتاب المقدس – كناية عن الأرض المقدسة، والكرامون والبناءون: هم بنو إسرائيل الذين أرسل الله أنبياءه (عبيده) إليهم المرة تلو المرة، فاعتدوا عليهم بالقتل والجلد والرجم، إلى أن أرسل الله عيسى عليه السلام الابن والوارث ليعقوب بن إسحاق بن إبراهيم في الأرض المقدسة، ليكونوا معه فيذعنوا له ويؤمنوا به ويتبعوه، لكنهم بدل ذلك أخذوه خارج الكرم وقتلوه بحسب فهمهم أنهم قتلوا المسيح.. والحجر الذي رفضه البناءون كناية عن سيدنا إسماعيل وأولاده من أمة العرب التي على رأسها ومن خيارها محمد r، ذلك أن إسماعيل رفضته السيدة سارة امرأة أبيه رفضته هو وأمه هاجر، لكن الزمان يدور في نهاية الأمة الإسرائيلية ويعود بنو إسماعيل والمسلمون من أتباع محمد r فيصيرون هم رأس الزاوية في الأهمية بالنسبة لله4.

وهنا يستطرد السيد المسيح مصرحاً بذلك وكاشفاً عما يرمى إليه هذا المثل، وموجهاً الكلام إلى تلا مذته الذين هم من بني إسرائيل، فيخبرهم بأن ملكوت الله المتمثل في إرث الأرض والنبوة سينزع من بني إسرائيل ليعطى لأمة إسماعيل لتعمل أثماره5، ولتصير رأس الزاوية من قِبَل الرب، وفي ذلك بيان شافٍ كافٍ لمن يستحق الوعد وي َخل ُف بني إسرائيل فيه من بعد انقضاء مدتهم في مكنون علم الله سبحانه.

---

(1) إلى هذا الحد كانوا يعلمون بمقدم رسول آخر الزمان، بل ويعرفون الوقت الذي سيبعث فيه، والعلامات التي تميزه وتكون دليلا ً على صدق رسالته.

(2) السطو: القهر بالبطش، قال تعالى: (يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا.. الحج/ 72)، أي يبسطون أيديهم ويبطشون بهم ويتطاول عليهم.. ينظر لسان العرب 2010/3 مادة (سطو).

(3) والقصة أوردها بسنده الحسن، ابن حجر في كتابه فتح الباري 454/6باب علامات النبوة في الإسلام، وينظر في شأنها هداية الحيارى ص188، 189وكتاب (في الدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين) ص 100، 101 و(علامات النبوة) لعبد الملك الكليب ص 160.

(4) واليه الإشارة بقوله r فيما رواه الشيخان والترمذي وأحمد: (إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ فأنا هذه اللبنة وأنا خاتم النبيين)، وفي رواية: (بنى داراً فأحسنها وأكملها وأجملها إلا موضع لبنة في زاوية من زواياه)، [ينظر في شأن الروايتين ونحوهما، صحيح البخاري باب المناقب 18 ومسلم في الفضائل 20، 21، 23 والترمذي في الأدب 77، والمناقب1، وأحمد 137/2، 256، 257، 312، 398، 412، 361/3، 137/5]، كما ينظر – في نظير ما تنبأت به عبارتا الحديث ومتى 21: 33 –: مزمور 118: 22-23 في العهد القديم، وإنجيل مرقس12: 1-12وإنجيل لوقا20: 17وأعمال الرسل4: 11في العهد الجديد.

(5) ينظر (إظهار الحق) لرحمت الله الهندي 4 / 1178- 1181و(محمد نبي الإسلام في التوراة والإنجيل والقرآن) لمحمد عزت الطهطاوي ص 32 وما بعدها.

فهل يعقل معشر يهود – وفى مقدمتهم أولئك الزاعمين ملكية بيت المقدس من الحاخامات ومن والا هم من المتعصبين والمتشنجين – هذا المثل المضروب لهم، فيكفوا عن المطالبة بما ليس لهم بموجب ما جاء في الكتاب المقدس وعلى ألسنة أنبيائهم؟ وهل حان الوقت لكي يع أولئك المعتدون على الحرمات والمقدسات وأصحاب الأرض، ما جاء في كتبهم وما شهد به كبراؤهم وأحبارهم ممن زامنوا بعثة محمد r ورأوا فيه من العلامات ما جعلهم يقرون ويعترفون بحقيقة الأمر؟ أم أن ما فشل فيه الأ سلاف الذين رفضوا الإذعان لأمر موسى بدخول الأرض المقدسة – التي هي في الأصل أرض عربية – قائلين له: (إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون.. المائدة/24)، يريد الخارجون على تعاليم الرب والمتمردون على أوامره من الأحفاد – عن طريق القتل والتشريد والمذابح الجماعية وسفك الدماء وإهلاك الحرث والنسل – أن يحرزوا في الوقت الضائع وبعد فوات الأوان، قصب السبق في سلبه ونهبه؟.

على أن موعود الله لبني إسرائيل، لم يكن مقصوراً على ذلك الوعد الموقوت بامتلاك الأرض وتوريث النبوة، الذي كان لهم قبل تحوله عنهم.. فقد وعدهم الله كذلك بمحبته إن هم آمنوا به وحفظوا وصاياه، كما وعدهم إن هم فعلوا ذلك وآمنوا برسله وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، بالرزق الوفير وبتكفير السيئات وبدخول الجنة، سواء كان ذلك قبل انتقال موعوده لهم بالأرض والنبوة وتحوله عنهم أم بعده، جاء ذلك على لسان كل من عاصرهم من الأنبياء، فمن غير ما ذكره موسى مما سقنا بعضه في صورة الشرط والجزاء، جاء على لسان عيسى عليه السلام في إنجيل يوحنا 14: 15 "إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي".

وفي القرآن الكريم قوله جل ذكره: (يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم.. البقرة/40)، وقد نقل القرطبي عن الحسن وقتادة أن المراد بالعهد قوله: (ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن عنهم سيئاتكم ولأدخلناكم جنات تجري من تحتها الأنهار.. المائدة/12)، ونظيره ما جاء في قوله: (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات النعيم. ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم.. المائدة/65، 66).

وأهل العلم والتحقيق على أنه عام في جميع أوامره ونواهيه ووصاياه، ويدخل في ذلك – بالطبع – الإيمان بمحمد الذي ورد ذكره في التوراة والإنجيل والذي لا يصلح لأحد إيمان بغير الإيمان به ولا تكتب له نجاة بسوى الإيمان بما أنزل إليه من ربه، ففي سيرة ابن هشام فيما نقله عن ابن إسحاق: "(وأوفوا بعهدي) الذي أخذت في أعناقكم لنبيي أحمد إذا جاءكم، (أوف بعهدكم) أنجز لكم ما وعدتكم على تصديقه واتباعه بوضع ما كان عليكم من الآصار والأغلال التي كانت في أعناقكم بذنوبكم التي كانت من أحداثكم، (وإياي فارهبون) أي: أن أنز ِل بكم ما أنزلت ُ بمن كان قبلكم من النقمات التي قد عرفتم من المسخ وغيره، (وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به)، وعندكم من العلم فيه ما ليس عند غيركم، (ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلا ً وإياي فاتقون. ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون.. البقرة/ 40: 42)، أي لا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولي وبما جاء به، وأنتم تجدونه عندكم فيما تعلموا من الكتب التي بأيديكم (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون.. البقرة/ 44)، أي: أتنهون الناس عن الكفر بما عندكم من النبوة والعهد من التوراة، وتتركون أنفسكم وأنتم تكفرون بما فيها من عهدي إليكم في تصديق رسولي، وتنقضون ميثاقي، وتجحدون ما تعلمون من كتابي.

ثم قال تعالى: (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا)، أي: بصاحبكم رسول الله ولكنه إليكم خاصة، (وإذا خ لا بعضهم إلى بعض قالوا) لا تحدثوا العرب بهذا، فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم فكان فيهم، (أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون.. البقرة/ 76)، أي تقرون بأنه نبي، وقد عرفتم أنه قد أخذ له الميثاق عليكم باتباعه، وهو يخبركم أنه النبي الذي كنا ننتظر ونجد في كتابنا؟، اجحدوه ولا تقروا به، (أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون.. البقرة/ 76،

.1"(77)
وعليه فالذي كان من الواجب أن يكون محط اهتمام بني إسرائيل منذ بعثة النبي محمد r وإلى يوم أن يرث الله ومن عليها، ولاسيما مدعي التدين منهم ممن هم الآن على قيد الحياة ونخص بالذكر منهم حاخاماتهم ومن أطلقوا على أنفسهم أمناء الهيكل، هو إنفاذ ما تبقى من هذه العهود والوفاء بها، حتى ينالوا الحظوة عند الله، بدلا ً من أن يخسروا بفعالهم وعنادهم وجحودهم واعتداءاتهم أجري الدنيا والآخرة بل ويستحقوا مع ذلك وعيده لهم فيهما.

****

الحقيقة الرابعة
تفضيل بني إسرائيل كان استثناء
مرده التمسك بما أخذ الله عليهم من مواثيق
****

نفيد مما سبق أن النصوص الدالة في آي الذكر الحكيم وقبلها نصوص الكتاب المقدس، على تكريم بني إسرائيل وتفضيلهم على عالمي زمانهم وتحقيق موعود الله لهم وجعلهم أو بعضاً منهم أئمة يهتدى بهم.. إنما جئ بها في معرض الامتنان على بني إسرائيل إبان التزامهم بما كان يأمرهم به الرب سبحانه، وفي غير أوقات انحرافهم أو إقامتهم على المعصية أو إعلانهم الكفر والتأبي على أحكام الله وأوامر أنبيائه.
كما جيء بها كذلك في معرض الحديث عن تميز الطائفة الظاهرة على الحق – والتي عادة ما تكون قليلة العدد – عن الكثرة المنحرفة، وذلك للإعلام – على ما يقتضيه الإنصاف والعدل الإلهي – أنه بقدر غلبة الحق وانحسار الباطل والتمسك بعهد الله وميثاقه والإذعان لأوامره وأحكامه والكف عن معاصيه، بقدر ما يكون التفضيل لمن تلبس بذلك ويكون التمكين.
ومن الآيات التي يتراءى فيها جانب الاصطفاء وإسباغ النعم في ضوء ما ذكرنا، قول الله تعالى: (يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليك وأني فضلتكم على العالمين.. البقرة/47)، وقوله: (وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى.. البقرة/57)، وقوله: (فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً.. النساء/ 54)، وقوله: (وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين.. المائدة/20)، وقوله: (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون.. السجدة/24)، وقوله: (ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين.. الجاثية/16).
ومن مظاهر تكريم الله لهم على ما ذكر المفسرون: أن ناداهم باسم أبيهم الذي هو منشأ فخارهم وأصل عزهم، وأن أكثر فيهم الأنبياء وجعلهم ملوكاً بأن هيأ لهم أسباب النعيم وأقدرهم على امتلاك الديار والنساء والخدم يستأذنونهم للدخول عليهم، وأعطاهم من الفضل والزيادة ما لم يعط غيرهم من شعوب الأرض حتى الأمم ذات الحضارات كالمصريين وسكان الأراضي المقدسة.. ومن مظاهره: أن جاوز بهم البحر وأخرجهم من مصر بعد أن أنقذهم من بطش فرعون وأشياعه العتاة الذين كانوا يسومونهم سوء العذاب، وما ذلك كله إلا لنفس الأسباب التي سبق ذكرها.. كما عمّهم سبحانه برحمته عندما شكوا إلى موسى – على إثر نجاتهم من فرعون – ما أصابهم في الصحراء من حر الشمس ومن قلة الطعام والشراب، إذ أرسل الله إليهم الغمام يظللهم، وأنزل عليهم المنّ الذي يشبه العسل فكانوا يمزجونه بالماء ويشربونه، وكانت السُمانى تأتيهم فيأخذ كل واحد منهم ما يكفيه إلى الغد، وأوحى الله إلى نبيه موسى أن يضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً بقدر قبائلهم.
والغريب أنه مع كل هذه النعم التي تستوجب الشكر والامتثال، فقد قابلوها بالنكران واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير.. والغريب كذلك أنه على الرغم من كثرة ما اقترفوه بحق الله، فإنه سبحانه كان يفتح لهم في كل مرة باب توبته ليعطيهم الفرصة تلو الفرصة.. الأمر الذي يؤكد أن حلم الله

(1) سيرة ابن هشام 2/ 130: 133 وينظر تفسير القرطبي 374/1 والنسفي 46/1 وما بعدهما.

عليهم – إلى هذا الحد ومع كل ما يفعلونه – لم يكن دائماً لرضاه عنهم أو تفضيلا ً لهم أو تحقيقاً لموعوده لهم، وإنما كان لحكم أخرى كأن يكون ذلك انتقاماً من فرعون وملأه على نحو ما أخبرت عنه التوراة السامرية بالإصحاح 9 عدد5، 6 من سفر التثنية وفيها: " ليس بزكاتك ولا بسلامة قلبك أنت داخل لوراثة أرضهم، بل لفجور الشعوب هؤلاء الله قارضهم من بين يديك وحتى يثبت الأمر الذي أقسم لآبائك لإبراهيم ولإسحاق وليعقوب. فاعلم أن ليس لزكاتك الله إلهك معطيك الأرض الحسنة هذه وراثة، إذ شعب قاسى العرف أنت".

وفيما يتعلق بتحقيق رغبتهم في دخول الأرض المقدسة، فقد وعدهم سبحانه إن هم دخلوها سجداً طالبين المغفرة بأن يحط عنهم خطاياهم، إلا أنهم ظلوا على ما هم عليه من بغي ولأي، ومن عدم مراعاة تعاليم الرب وأوامره، بل واستهزاء بها.. وبدل أن يدخلوا باب بيت المقدس منحنين خاضعين دخلوه على أستاههم زاحفين، وبدل أن يقولوا (حطة) أي (حط عنا خطايانا)، قالوا: (حنطة)، فكان أن حجب الله عنهم تمكينه منه، وكان ما أخبر الله به في قوله: (وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين. فبدل الذين ظلموا منهم قولا ً غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون.. البقرة/58، 59)1.

ومن عظيم رحمة الله بهم أن لم يأخذ جميعهم بجريرة من بدل منهم وحرف الكلم عن مواضعه، كما أنه تعالى لم يستأصل شأفتهم بعد أن امتنع منهم من امتنع عن دخول المدينة المقدسة وتقاعس منهم من تقاعس عن قتال الجبارين بها عندما أمرهم الله بذلك، بل وعقب قولهم لموسى بكل جرأة: (إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون.. المائدة/24) – على الرغم من أن الأمر بدخولها جاء بناءاً على رغبتهم – فكان الاكتفاء بعقوبة التيه بين مصر والشام أربعين سنة وعدم إهلاكهم وذرياتهم بالكلية، رحمة بمن لم يصدر عنه هذا القول واستبقاء لنسلهم الذي شاء سبحانه أن يكونوا بعدُ على بينة من الأمر.

وفي النظم الكريم من آيتي البقرة ما يؤذن ويومئ من طرف خفي إلى تمايز القلة المتمسكة بأوامر الرب ووصاياه عن أولئك الذين ظلموا أنفسهم وبدلوا (قولا ً غير الذي قيل لهم)، فقد قرر أهل التأويل أنه لم يدخل الأرض المقدسة المعبر عنها في الآية الكريمة بـ (القرية) من بعد موسى سوى قلة تمثلت – مع النواشئ من ذرياتهم – في يوشع ورجلين أنعم الله عليهما بالإيمان به تعالى و الخوف منه، وأن العقاب بالرجز لم يلحق سوى أولئك الذين قالوا: (إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها)، فهؤلاء هم الذين حـ َرّم الله عليهم دخولها حتى أهلكهم بالطاعون الذي غدا بسبعين ألف منهم وقيل بأربعة وعشرين ألفاً فجعلهم أثراً بعد عين.

وهنا نبصر من خلال شواهد القرآن الأخرى المتعلقة بهذه الواقعة وكذا شواهد السنة الصحيحة، عدل الله المطلق، حيث حـ َرّم سبحانه دخول الأرض المقدسة على الذين نكصوا على أعقابهم على الرغم من أنهم كانوا في صحبة موسى وهارون عليهما السلام2.. في حين مكن ليوشع بن نون الذي قام بالأمر بعد كليم الله موسى عليه السلام فخرج ومعه من تبَقى من بني إسرائيل ممن تشجعوا لدخولها ولم يتفوهوا بما فاه به سابقوهم3، فقصد بهم بيت المقدس، بل وأحدث الله له ولهم من الكرامات ما أعانهم على دخولها في الموعد الذي أرادوه، حتى أن يوشع لما حاصرها بمن معه، وهم بافتتاحها ودنت الشمس للغروب، وكان ذلك يوم الجمعة بعد العصر، فخشي إن دخلت ليلة السبت أن يسبتوا، نادى الشمس وقال: إنك مأمورة وإني مأمور فوقفت حتى افتتحها ووجد فيها من الأموال ما لم يُر مثله قط.. وهكذا.

الأمر الذي يؤكد على أن الله حين اختبرهم أيام موسى عليه السلام وأمرهم بقتال العمالقة الجبارين ونكصوا عن ذلك، عاقبهم بحرمانهم من دخولها وحكم عليهم بالتيه أربعين سنة في صحراء سيناء لا

---

(1) يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية1/ 98: "أمروا بدخول الأرض المقدسة التي هي ميراث لهم عن أبيهم إسرائيل – يعني بموجب موعود الله لهم ولأبيه إبراهيم – وقتال من فيها من العماليق الكفرة فنكلوا عن قتالهم، وضعفوا واستحسروا فرماهم الله بالتيه عقوبة لهم"، وقد نص على أن المراد بـ القرية: بيت المقدس، السدي والربيع بن أنس وقتادة وأبو مسلم الأصفهاني وغيرهم، وحاصل القول أنهم أمروا أن يتواضعوا لله تعالى عند الفتح بالفعل والقول وأن يعترفوا بذنوبهم ويستغفروا منها، ولكن هيهات لشعب صلب الرقبة ولأناس جبلوا على المعصية أن يفعلوا ذلك أو شيئاً منه.
(2) وهو ما أفاده قوله سبحانه على لسان موسى: (قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين.. المائدة/25).
(3) الذين قالوا لموسى بكل بجاحة وصفاقة: (إنا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون.. المائدة/ 24).

يخرجون منها ولا يهتدون لغيرها.. ولما انتهت مدة العقوبة وقاد يوشع من وليهم للقتال وتصبروا على تنفيذ أمر الله، امتن عليهم بما لم يمتن على من كانوا منهم أيام موسى وهارون عليهما السلام، بأن نصرهم على أولئك الجبارين وظلوا بهم حتى أخرجوهم من فلسطين، بل امتن عليهم بما أخبر عن عمومهم في قوله: (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون.. الأعراف/ 137)، وقوله: (ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات.. يونس/ 93)، وتمت إرادة الله الحاصلة في تمكين أهل الحق وإهلاك أهل الباطل والماثلة في قوله سبحانه: (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين. ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون.. القصص/ 5، 6)(1).

كما يؤكد علي أن سنة الله في التفضيل ثابتة لا تتغير ولا تتبدل لكونه سبحانه لا يفضل بعد الإعذار إ لا الفئة المؤمنة الصابرة، إذ حاشاه – جلت قدرته وتعالت حكمته – أن يساوي بين من امتثل لأمره ومن عدل عنه، أو أن يحابى أحداً على حساب أحد، وإنما يتأتى ذلك ممن اختلت عقولهم وموازين العدل عندهم من البشر.

وعليه فدعاوى السابقين من بني إسرائيل أنهم أبناء الله وأحباؤه، واللاحقين منهم بأنهم شعب الله المختار على ما هم عليه هؤلاء وأولئك من كفر ومعصية، دعاوى زائفة ولا أساس لها في ميزان العدل الإلهي، لذا يقول سبحانه في دحضها: (وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما وإليه المصير.. المائدة / 18).

ومصداق ذلك فيما يدينون به ما جاء في سفر التثنية 7: 6، 9-11 "لأنك أنت شعب مقدس للرب إلهك، إياك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعباً أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض.. فاعلم أن الرب إلهك هو الله الإله الأمين الحافظ العهد والإحسان للذين يحبونه ويحفظون وصاياه إلى ألف جيل. والمجازي الذين يبغضونه بوجوههم ليهلكهم، ولا يمهل من يبغضه، بوجهه يجازيه. فاحفظ الوصايا والفرائض والأحكام التي أنا أوصيك اليوم لتعملها"2.

وفي الإصحاح الثامن من نفس السفر 1- 3 جاء في خطاب الله لموسى ولمن اعتزم من بني إسرائيل صحبته إلى أرض الميعاد ما نصه: "جميع الوصايا التي أنا أوصيكم بها اليوم، تحفظون لتعملوها لكي تحيوا وتـ َكثروا وتمتلكوا الأرض التي أقسم الرب لآبائكم. وتتذكر كل الطريق التي فيها سار بك الرب إلهك هذه الأربعين سنة في القفر لكي يُذِلكَ ويجرّبك ليعرف ما في قلبك أتحفظ وصاياه أم لا . فأذلكَ وأجاعك وأطعمك المنّ الذي لم تكن تعرفه ولا عرفه آباؤك لكي يعلمك أنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل ما يخرج من فم الرب يحيا الإنسان".

ولما كان ما كان من أمر نكوصهم "قال الرب له – يعني لموسى –: هذه هي الأرض التي أقسمت لإ براهيم وإسحاق ويعقوب قائلا ً لنسلك أعطيها، قد أريتك إياها بعينك ولكنك إلى هناك لا تعبُره. فمات هناك موسى عبد الرب في أرض مؤاب حسب قول الرب" تثنية 34: 4-5، أما من كانوا في صحبته عليه السلام فقد عاقبهم جل وعلا بأن حرمهم رؤيتها وكان أن "ساروا أربعين سنة في القفر حتى فني جميع الشعب رجال الحرب الخارجين من مصر الذين لم يسمعوا لقول الرب الذي حلف الرب لهم إنه لا يريهم الأرض التي حلف الرب لآبائهم أن يعطينا إياها، الأرض التي تفيض لبناً وعسلا ً. وأما بنوهم فأقامهم مكانهم"سفر يشوع 5: 6-7.

وعن مجازاته سبحانه لمن استنهضهم يوشع بن نون بما يستحقونه من موعوده، جاء في سفر يشوع 21: 43-45 "فأعطى الرب إسرائيل جميع الأرض التي أقسم أن يعطيها لآبائهم فامتلكوها وسكنوا بها. فأراحهم الرب حواليهم حسب كل ما أقسم لآبائهم، ولم يقف قدامهم رجل من جميع أعدائهم بل دفع الرب جميع أعدائهم بأيديهم. لم تسقط كلمة من جميع الكلام الصالح الذي كلم به الرب بيت إسرائيل بل الكل صار"، وإنما كان لهم ما أرادوا – فيما يشبه النحو على آبائهم باللائمة أن خالفوا ما

---

(1) ينظر تفسير ابن كثير 346/3، 441/2، 248.

(2) ونظير ذلك، ما جاء في نفس السفر 8: 17 – 20 وفي سفر الملوك الأول 9: 3- 9، وقد سبق ذكرهما وذكر ما جاء على شاكلتها إبان الحديث عن تعليق موعود الله لبني إسرائيل على استيفاء شروط استحقاق موعود الله في ميراث الأرض والنبوة، في الحقيقة الأولى.

أمر به موسى عليه السلام – لأن الذين كانوا مع يشوع "أجابوا يشوع قائلين، كل ما أمرتنا به نعمله وحيثما ترسلنا نذهب. حسب كل ما سمعنا لموسى نسمع لك، إنما الرب إلهك يكون معك كما كان مع موسى. كل إنسان يعصي قولك ولا يسمع كلامك في كل ما تأمره به يقتل"، كذا هو نص يشوع 1: 16-18.

ويدل ما ذكرنا وكذا ما حدث إبان نشوة دخولهم إياها مع يوشع، على عدم ملكيتهم لأرض فلسطين، ذلك لأن وجودهم آنذاك – بل ومن قبل ذلك ومن بعده، وبموجب ما جاء في الكتاب المقدس، وبموجب علم الله بحال تلك القلة التي خ ا فها غيرها ممن عصى أوامر الله تعالى ولم يسمع كلا مه ولم يحافظ على وصاياه – كان وجوداً طارئاً، كما كان تمكينهم كذلك تمكيناً عارضاً.

فمما يذكره التاريخ ويُعد من الأمور الثابتة وتشهد له توراتهم: أن يعقوب حين ارتحل بذريته إلى مصر ومات بها وعمره(147) سنة – على ما جاء في سفر التكوين 47:28، 23: 3- 6، 37: 1، 46: 1- 7 – لم يكن يملك لا هو ولا آباؤه إبراهيم وإسحاق، ولا بنوه – 70نفساً – من أرض فلسطين شبراً ولا ذراعاً.. كما أن المدة التي عاشها بنو إسرائيل بمصر من بعد أن دعاهم إليها يوسف عليه السلام وحتى أخرجهم موسى (430) سنة – على ما تنطق به توراتهم وتحديداً في سفر الخروج12: 40 – لم يكونوا يملكون منها شيئاً.. ثم إنهم بعد نزوحهم من مصر وبعد أن نكلوا عن قتال العمالقة مع موسى عليه السلام، وشردهم الله في التيه الذي مات فيه موسى وهارون وهما آسفان عليهم، لم يدخلوا المدينة المقدسة وخرج من بقى منهم مع يوشع بن نون ففتح الله عليهم بدخولها بعد أن هُزم أهلـ ُها – على ما جاء في سفر يشوع من الإصحاح 6إلى الإصحاح 21 – ومات يشوع بعد أن قسم الأرض على أسباط بني إسرائيل، وقد أوفوا وقتها بعهد الله فأوفى الله بعهده وحقق موعوده لهم "فأعطى الرب إسرائيل جميع الأرض التي أقسم أن يعطيها لآبائهم فامتلكوها وسكنوا بها. فأراحهم الرب حواليهم حسب ما أقسم لآبائهم ولم يقف قدامهم رجل من جميع أعدائهم بل دفع الرب جميع أعدائهم بأيديهم. لم تسقط كلمة من جميع الكلام الصالح الذي كلم به الرب بيت إسرائيل بل الكل صار" يشوع 21: 43- 45.

ومع كل هذا لم يقم لهم فيها ملك ولا دولة، وسر ذلك ببساطة شديدة أنهم سرعان ما عادوا لما نهوا عنه، ففعلوا الشر في عيني الرب وأغاظوه "وتركوا الرب إله آبائهم الذي أخرجهم من أرض مصر، وساروا وراء آلهة أخرى من آلهة الشعوب الذين حولهم وسجدوا لها. تركوا الرب وعبدوا البعل وعشتاروت. فحمى غضب الرب على إسرائيل فدفعهم بأيدي ناهبين نهبوهم، وباعهم بيد أعدائهم حولهم، ولم يقدروا بعد ُ على الوقوف أمام أعدائهم.. وأقام الرب قضاة فخلصوهم من يد ناهبيهم.. ولقضاتهم أيضا لم يسمعوا.."، كذا في سفر القضاة 2: 12- 14، 16، 17.. ثم جاء بعد حكم القضاة الذي استمر 200سنة، حكم الملوك شاؤول (طالوت)، وداود وسليمان فحكموهم مع قلتهم ومع بقاء البلاد في أيدي أصحابها من اليبوسيين والصدوقيين لمدة 100سنة من 1033: 933 ق.م تقريبا، وكانت هذه هي مدة دولتهم والفترة الذهبية لهم مع غربتهم، ودل على أنهم مع ذلك كانوا غرباء نصوص كتبهم التي ذكرنا طرفاً منها.

وبعد عهد سليمان الذي أتم بناء الهيكل – الذي لم يرد ذكره سوى في التوراة – انقسمت مملكته سنة 935 ق.م بين يهوذا – السبط الرابع ليعقوب والذي إليه ترجع نسبة اليهود – في أورشليم (القدس)، وإسرائيل في شكيم (نابلس) وكانت الحرب بينهما سجالا ً لم تتوقف حتى سنة 586 ق.م إلى أن تمكن بختنتصر ملك الكلدانيين في بابل سنة 597 ق.م من القضاء على مملكة يهوذا، وأسر معظم سكانها إلى بابل بالعراق، وأحرق التوراة وأخذ التابوت إلى بلاده – وهو صندوق كان به بقايا مما ترك آل موسى وآل هارون – ودمر مدينة القدس كلها وهيكلها، على ما جاء في سفر الملوك الثاني 24: 13، 25 وما بعدها، وإرميا 52: 30.. ومن قبل ذلك بقليل وتحديداً في سنة 725 ق.م، أغار سرجون الثاني ملك آشور على المملكة الشمالية التي عاصمتها شكيم ودمرها ونقل جميع أهلها إلى شرق الفرات، وانتهى بذلك نهائيا الوجود اليهودي في فلسطين، وبعد الغزو البابلي والأشوري لم يتمكن اليهود من استعادة كيانهم السياسي حتى سنة 167 ق.م، لأنه خلال تلك الفترة وتحديداً في سنة 539 ق.م غزا الفرس فلسطين واحتلوها لقرابة قرنين من الزمان، وذلك بعد أن احتلوا بابل هي الأ خرى وألحقوها بدولتهم.

وفي سنة 332 ق.م – حيث بداية العصر اليوناني – غزاها (الإسكندر المقدوني) وألحقها بدولة الإغريق، ثم جاء البطالمة والسلاجقة 301: 63 ق.م فوضعوا أيديهم عليها وتناوبوا حكمها، وبقيت تابعة لعاصمتهم حتى غزاها الرومان واحتلوها وظلت تحت أيديهم مدة طويلة بعث الله إبّانها عيسى عليه السلام الذي كاد له اليهود وأوصلهم كيدهم إلى أن استعانوا سنة 27م بملوك الرومان على قتله وأوحوا إليهم – بعد عودتهم من الأسر البابلي ومحاولة استغلال مركزهم الديني الذي كان ممنوحاً لهم من قبل وتعاطف الحاكم الروماني (هيرودس) معهم – أنه جاء ليفسد عليهم رعاياهم.. وفي سنة 70م ثار اليهود على الرومان فبطش بهم القائد الروماني (تيتوس) ونكل بهم وأحرق هيكلهم الذي كانوا قد أعادوا بناءه – إن صح ما قيل في ذلك – إبان غزو الفرس لفلسطين بعد مهادنة من الملك (دارا)، كما أعادوا توسعته أثناء الغزو الروماني على يد (هيردوس) الذي اعتنق اليهودية، ودمر (تيتوس) ومن بعده (إدريانوس) عام 135 المدينة بأكملها وأقاما مكانها مدينة جديدة على الطراز الروماني أطلق الأخير عليها اسم (إيليا) وحرم على اليهود أن يقطنوها.
فهم ما كادوا ينفكون من الغزو البابلي الذي قضى على كيانهم السياسي حتى أثخنهم الغزو الروماني الذي أباد خضراءهم ومزقهم وقضى على كيانهم الذاتي، وبعد عيسى بثلاثمائة سنة استدار الزمان واندثرت معالم الديانة اليهودية في البلاد المقدسة وغيرها ودخل قسطنطين أحد ملوك اليونان في دين النصرانية وانتشرت بسببه تلك الملة حتى استحوذ النصارى على مملكة الشام والجزيرة وبلاد الروم، وبنى هذا الملك مدينة القسطنطينية وبيت لحم وعدد غير قليل من الكنائس ببلاد بيت المقدس، ولم تزل أيديهم على هذه البلاد حتى انتزعها منهم الصحابة في خلافة عمر سنة 636م وأسلم جل أهلها، وظل اليهود إبان الفتح الإسلامي وبعده مشردين في الأرض ومحرم عليهم أن يقيموا فيها بعد أن طردهم الرومان منها، حتى أن بطريرك القدس (صفرنيوس) اشترط على أمير المؤمنين عمر وهو يسلمه مفاتيح القدس ألا يسمح لليهود – نظراً لماضيهم السيئ وواقعهم الأسوأ – بدخول إيلياء أو الإقامة فيها[1].
الأمر الذي يعني أن التاريخ نفسه بكل فصوله ومراحله – فضلاً عن تراثهم الذي نفى حقهم الديني في أرض فلسطين على ما أفضنا – هو الذي يشهد بأن اليهود لم يكونوا أول من عاش على أرض فلسطين، وإنهم إنما وفدوا إليها فيما بعد، ثم انتهت صلتهم تماماً بهذه الأرض منذ أن احتلها الرومان واعتنق سكانها الأصليون من العرب الكنعانيين الديانة المسيحية ولم يغير ذلك من طابعها العربي الذي ازداد تجذراً بعد انتشار الإسلام في المنطقة العربية كلها.. كما يعني أن العرب حين استعادوا القدس إبان الفتح الإسلامي ودخلوا بلاد أجدادهم اليبوسيين، دخلوها وهي خالية من اليهود، وقد تم لهم ذلك دون إلحاق الضرر بأي شيء بها حرصاً على مركزها الديني، وتدفقت عليها فيما بعد القبائل العربية، ومنذ ذلك التحول والانتقال ظلت فلسطين وستظل كما كانت من قبل، بلداً عربياً شعباً ولغة وديانة مهما حاول الصهاينة ومن ورائهم من الصليبيين المخالفين لوصايا ولتعاليم الرب2.

****

(1) وهكذا كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها وكلما عادوا إلى الفتنة والإفساد في الأرض سلط الله عليهم من يدمرها عليهم، وأعاد إليهم وعيده الذي أخبر عنه في قوله: (وإن عدتم عدنا.. الإسراء/8)، وكان آخر ما نزل بهم، في حرب العاشر من رمضان سنة 1493هـ الموافق للسادس من أكتوبر سنة 1973م، فقد دُكت في أقل من ست ساعات حصونهم المنيعة ودمرت آلتهم العسكرية وتحطمت قواهم المعنوية وأنزل الله بهم على يد جنود مصر وسوريا الأوفياء، بأسه الشديد، وقبل ذلك حل بهم ما حل على يد أدولف هتلر بعد أن نزح يهود شرق أوربا في أواخر عام 1910 إلى النمسا، ومثلوا أكثر سكان عاصمتها (فيينا)، وحصلوا فيها على جل المراكز الجيدة في قطاع المصارف والحياة المهنية والفنون والصحافة.. الأمر الذي ولد لدى هتلر النمساوي المولد، والذي عجز عن الالتحاق بإحدى كليات الفنون الجميلة ببلاده، انطباعاً بالكراهية والعداء الشديدين، وأثناء الحرب الثانية تذرع هتلر بعد أن تقلد الحكم، بالقول بأن المنظمات اليهودية العالمية قد ناصرت الحلفاء الغربيين، فأمر بإبادة اليهود الأوربيين بعد ما احتلت هذه المنظمات قسماً كبيراً من القارة الأوربية، وأسفرت هذه الحرب على إبادة نحو ستة ملايين يهودي، على حد ما ورد في شهادات الباقين منهم على قيد الحياة والحراس السابقين لمعسكرات الإبادة، وما ورد نتائج التحقيق في مواقع المعسكرات ذاتها.
(2) ينظر لمزيد من التفصيل لتاريخ القدس وماضيه (القدس عربية إسلامية) د. فرج راشد ص53- 157.

الحقيقة الخامسة
لا محاباة في إمضاء سنة الله القاضية
بأن عهد الله لا ينال الظالمين ولا ينالونه
****

واتباعاً لهذه السنة الماضية والقاضية بتفضيل الله وإنجائه للطائفة المؤمنة التي عادة ما تكون قليلة العدد والعدة.. واستكمالا للحديث عن الكثرة التي عادة ما تكون يفشو فيها الفساد والإفساد على ما أفاده قول الله تعالى: (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين.. يوسف/103)، وقوله: (فأبى أكثر الناس إلا كفوراً.. الفرقان/50)، وقوله: (ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين.. الصافات/71)، إلخ.. نقول:
إنه وعلى العكس مما جاء من تفضيل وتكريم بحق بني إسرائيل على عالمي زمانهم، وهو ما جرى لهم حين تمسكوا بالكتاب ونفذوا فرائض الله وعملوا بوصايا أنبيائه، وحصل لهم – كما لاحظنا – على فترات قصيرة ومتقطعة، وتحقق لهم في نهايته ما كانوا يحلمون به من دخول الأرض المقدسة.. فإن جرائمهم التي أفنوا لها جل حياتهم ولا يزالون، وارتكبوا فيها بحق الله ورسله – كماً وكيفاً – ما يفوق الوصف، جلبت عليهم مقت الله وسخطه، وحرمتم من موعود الله ومن أن تظل أرض العسل و اللبن خالدة لهم تالدة، وهذا أمر تم تقريره وهو لا يخفى على ذي لب.
ذلك أن المطلع على أحوالهم على مدار تاريخهم الطويل، يخلص إلى أنهم قادة هذه الكثرة المفسدة في الأرض، وهم منذ أن خلقهم الله – إلا من رحم ربك – بمثابة شياطين الإنس، لكونهم أصل كل كفر وضلال.. وقد رأينا كيف اتخذوا العجل معبوداً لهم بمجرد ذهاب موسى عليه سلام الله إلى مناجاة ربه، وهو الذي ما كف لحظة عن دعوتهم إلى عبادة الله وحده.. وكيف أمروا أن يدخلوا باب

بيت المقدس سجداً وهم يقولون: (حطة)، يعني: حط عنا ذنوبنا في تركنا الجهاد ونكولنا عنه حتى تهنا في التيه أربعين سنة، فدخلوا يزحفون على أستاههم وهم يقولون: حنطة.. وكيف جاءتهم الوصايا من الله بحفظ (السبت) والتزام ما حرم الله عليهم فيه من صيد البحر ما دام ذلك مشروعاً لهم في سائر الأيام، فخالفوا وعصوا وتحايلوا على ارتكاب ما حرم الله عليهم.. وكيف أنهم اقترفوا من الذنوب – قبل وبعد – ما أوجب الله لعنتهم وطردهم وإبعادهم عن الهدى، وهو نقضهم العهود التي أخذت عليهم وكفرهم بآيات الله والمعجزات التي شاهدوها على يد أنبيائهم[1].

ولطالما حكى القرآن عنهم وقبله التوراة والإنجيل التي بأيديهم – رغم ما بها – اعتداءاتهم على أنبياء الله المبلغين عن الله رسالاته والذين هم مصدر هداية لهم، ولو اقتصر أمر معشر بني إسرائيل على مجرد التكذيب لهان الخطب، لكنه تعدى ذلك بكثير ووصل إلى ما هو أبعد من التكذيب بمراحل، فقد جاء في الحديث عن أبي عبيدة قوله r: "قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار في ساعة واحدة فقام مئة وسبعون رجلا ً من بني إسرائيل فأمروا مَن قتلهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوهم جميعا من آخر النهار من ذلك اليوم، فهم الذين ذكرهم الله عز وجل – يعنى في قوله: (إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم.. آل عمران/ 21)".

كما أورد ابن كثير في تفسير قول الله تعالى: (وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون.. البقرة/61)، أثر ابن مسعود الذي يقول فيه: (كانت بنو إسرائيل تقتل ثلاثمائة نبي في أول النهار – يا لقساوة القلوب – ثم يقيمون سوق بقلهم في آخره) وأعقبه بالقول: "إنه لما ارتكب بنو إسرائيل ما ارتكبوا من الكفر بآيات الله وقتلهم أنبياءه أحل الله بهم بأسه الذي لا يرد وكساهم ذلا ً في الدنيا موصولا بذل الآخرة جزاء وفاقاً"2.. وللمزيد من الوقوف على تحقيق هدفهم من التخلص من أنبيائهم الذي كانوا يسعون إليه بكل وسيلة، تنظر الآيات 87، 91 من سورة البقرة، والآيات 112، 181، 183 من سورة آل عمران، والآيات 155، 157 من سورة النساء، والآية 70 من سورة المائدة، وينظر معها ما قاله أهل التفسير ليتبين لك كم كانوا حريصين على سفك هذه الدماء الزكية بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله.

وحسبنا أن نستشهد هنا – من غير القرآن – على تلك المذابح التي نصبوها لأنبيائهم بما ورد في بعض نصوص كتابهم المقدس، فقد جاء في سفر نحميا 9: 26 "وقتلوا أنبياءك الذين أشهدوا عليهم ليرُدّهم إليك وعملوا إهانة عظيمة".. وما جاء في سفر الملوك الأول 19: 10، 14 "وقتلوا أنبياءك".. وما جاء في إنجيل متى 23 وفيه 31، 36-34: "أنتم تشهدون على أنفسكم أنكم قتلة الأنبياء.. هاأنا أرسل إليكم أنبياء وحكماء وكتبة فمنهم تقتلون وتصلبون ومنهم تجلدون في مجامعكم وتطردون من مدينة إلى مدينة. لكي يأتي عليكم كل دم زكي سُفك على الأرض من دم هابيل الصديق إلى دم زكريا بن بَرَخيا الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح. الحق أقول لكم أن هذا كله يأتي على هذا الجيل".

وأن نشير كذلك إلى أن ما ورد في إنجيل متى في الإصحاح21 عدد33 وما بعده، مما سبق ذكره من أمر الكرامين – الذين ما أن جاءهم عبيد صاحب الكرم ليأخذوا أثمار غرسه إلا وأعملوا فيهم القتل و الجلد والرجم، ولم يكتفوا بذلك حتى فعلوا مثله مع كافة من أرسله إليهم ممن كانوا أكثر من سابقيهم، بل لم يكفهم كل هذا حتى تآمروا في نهاية المطاف على وارثه الذي أرسله إليهم، في إشارة واضحة إلى المسيح عيسى عليه السلام – قد ورد مثله في إنجيل مرقس12: 1-12، وفي إنجيل لوقا20: 9-19 وأعمال الرسل 4: 11 3.

الأمر الذي يعنى أن أمر اعتدائهم على الأنبياء لم يقتصر مجيئه على القرآن بل تحدثت به أيضاً كتب القوم يهوداً كانوا أم نصارى.. وعليه فلا عجب حين تطال مؤامراتهم الدنيئة خاتم الأنبياء محمد r، وذلك حين دبروا غير ما مؤامرة لقتله، وحين أهدوا له شاة مسمومة مات على إثر الأكل منها الصحابي الجليل بشر بن البراء، وما كاد r يأكل منها حتى قال: إن هذه الشاة تخبرني أنها مسمومة)..

([1]) ينظر تفسير ابن كثير1/ 573.

(2) تفسير ابن كثير 102/1 وينظر 1/ 355.

(3) ينظر إظهار الحق 1179/4 في شرحها وفي إبراز ما تحمله هذه العبارات من بشارة بمقدم الهادي البشيرr.

وأن يقوم في زماننا المعاصر أحد مستعمريهم في مدينة الخليل وبحراسة من الجيش، بلصق وتوزيع شعارات ورسوم تكيد للإسلام وللمسلمين، وقد ظهر في أحد هذه الرسوم صورة خنزير على رأسه كوفية فلسطينية كتب عليها اسم (محمد) بالإنجليزية والعربية وأمسكوا هذا الخنزير قلماً يكتب به كلمة (القرآن)، كما تلقت جهات فلسطينية رسمية عبر البريد الالكتروني رسماً مهيناً للنبي عليه السلام كتب عليه (محمد) وتحته خنازير صغار يرضعون منه وقد كتب عليها كلمة (فلسطينيون)، وسيظل يوم السبت 28 يونيو 1997 الذي جرت فيه هذه الواقعة محفوراً في ذاكرة المسلمين حتى يقضي الله أمراً كان مفعولا ً.. ولا عجب إن نحن عرفنا كراهيتهم للأنبياء، أن تنشر إحدى مجلاتهم وتسمى (جاليليو) صوراً كلاسيكية للسيدة مريم العذراء وهي تحمل سيدنا المسيح عليه السلام بعد أن استبدلوا رأسها برأس بقرة.. وهكذا.

فهم الذين لا يكفون عن استحلال قتل النساء والأطفال، ولا يكفون عن نشر الإلحاد في العالمين، وهم الذين أوقدوا نيران الحروب التي وقعت في أنحاء المعمورة، حتى صدق فيهم قول الله تعالى عنهم: (كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فساداً.. المائدة/ 64).. والباحث عن الحقيقة يجد أنهم – وكما نطقت الآية ومع ضلالهم وكفرهم – وراء كل فساد وإفساد.. هم وراء فساد الإلحاد وفساد الأخلاق وفساد التنصير والتكفير وفساد العصبيات والأفكار الهدامة وفساد الصحافة والإعلام، ومن هنا جاءت الآية السابقة وما كان على شاكلتها تحذر من خطرهم وتنبه على أنهم أس البلاء على مدار التاريخ وفي الحاضر والماضي وفي بلاد الإسلام وغيرها.

وهذا ما يشهد به التاريخ وأثبتته الوقائع.. فـ (أبو عفك) اليهودي، وكذا أضرابه: (كعب بن الأشرف) و (ابن أبي حقيق) وغيرهما، كانوا من أوائل من ألبوا الأحقاد وقلبوا الأمور في الدولة الإسلامية الناشئة في المدينة، فجمعوا يهود المدينة وكفار قريش والقبائل الأخرى في الجزيرة على محاربة المسلمين، ولطالما قالوا عن المشركين: (هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ً.. النساء/ 51)، على الرغم من أنهم الذين كانوا وأقرانهم من قبل يستفتحون عليهم بالنبي الخاتم r (ولما جاءهم ما عرفوا كفروا به.. البقرة/ 89).. واليهودي (عبد الله بن سبأ) هو من أثار العوام وجمع الشراذم وأطلق الشائعات في فتنة مقتل عثمان بن عفان – رضي الله عنه – ووراء ما تلا ذلك من نكبات.

كما أن اليهودي (مدحت باشا) كان وراء إثارة النعرات القومية واستخدام المخططات الماسونية في دولة الخلافة العثمانية، الأمر الذي أدى في النهاية إلى سقوطها على يد اليهودي الأصل (مصطفى كمال أتاتورك).. واليهودي (كارل ماركس) هو الذي كان وراء موجة الإلحاد التي سرعان ما أضحت قوة ودولة.. واليهودي (فرويد) كان وراء النزعة الحيوانية التي أصبحت فيما بعد منهجاً تتلوث به عقول الناشئة من مسلمين وغيرهم.. واليهودي (دور كايم) كان وراء الأفكار التي نتج عنها تفكيك الأ سر وتخريب البيوت.. واليهودي (جان بول سارتر) كان وراء نزعة أدب الانحلال في علاقات الأفراد و الجامعات.. واليهودي (جولد تسيهر) كان وراء حركة الاستشراق التي استشرى فسادها وعم ظلمها.. و اليهودي (صموئيل زويمر) هو الذي خطط لحركات التبشير والتكفير في بلاد المسلمين لا لمجرد إدخال المسلمين في النصرانية بل لإخراجهم من الإسلام وضرب الإسلام بالنصرانية والعكس.. و اليهودي (ثيودر هرتزل) هو الذي وضع البذرة الأولى في محنة العصر المسماة بأزمة الشرق الأوسط لإ قامة هذه الدولة التي ولدت بعد مماته سفاحاً فكانت بؤرة للإفساد في الأرض.

وإذا كانت هذه هي بعض جرائمهم بعد تحول موعود الله عنهم، فالسؤال: ماذا يفعل الله بقوم تركوا ملة آبائهم التي أمروا ألا يعيشوا إلا في كنفها وألا يموتوا إلا عليها، وبدلا ً من أن يقيموا التوحيد ويؤمنوا بمن جاء به من أنبيائهم، راحوا يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير وطفقوا يلتمسون الهدى في عبادة العجل تارة وفى العقائد الباطلة التي برأ الله منها ساحة خليله إبراهيم وبنيه من الأ نبياء جميعاً، تارة أخرى، راغبين بذلك عن وصاياهم وضاربين بكلامهم جميعاً عرض الحائط؟.

يقول سبحانه مبيناً ما وصل إليه حال هذا الجنس المتميز في الكفر والضلالة والشر والخيانة: (إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين.. الأ عراف/152)، (فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم.. المائدة/13).. وقد علمنا قبلا ً كيف "عملوا أموراً قبيحة لإغاظة الرب. وعبدوا الأصنام التي قال الرب لهم لا تعملوا هذا الأمر"، وكيف حذرهم

موسى عليه السلام من مغبة ذلك قائلا ً لهم: "ارجعوا عن طرقكم الردية.. فلم يسمعوا وصلبوا أقفيتهم كأقفية آبائهم الذين لم يؤمنوا بالرب إلههم. ورفضوا فرائضه وعهده الذي قطعه مع آبائهم وشهاداته التي شهد بها عليهم وساروا وراء الباطل.. وتركوا وصايا جميع الرب إلههم وعملوا لأنفسهم مسبوكات عجلين.. وعبدوا البعل"، على حد ما جاء في سفر الملوك الثاني 17: 11وما بعدها.. كما وقفنا على ما جاء في سفر التثنية32: 21 من قول الله لهم على لسان بعض رسلهم: "هم أغاروني بما ليس إلهاً، أغاظوني بأباطيلهم، فأنا أغيرهم بما ليس شعباً، وبشعب جاهل أغضبهم"، وإليه الإشارة بقوله: (هو الذي بعث في الأميين رسولا ً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين.. الجمعة/2).

ويلا حظ في آيات سورة البقرة التي سبق ذكرها في الحقيقة الرابعة – تلك الآيات التي تناولت قصة دخولهم الأرض المقدسة وتحدثت عن تبديل الذين ظلموا منهم قولا ً غير الذي قيل لهم – كيف أنها جاءت في إطار الحديث عن مدى عفو الله وفضله، وعن حلمه سبحانه وصبره اللذين عادة ما كانا يقابلان بالمزيد من الإقامة على المعصية والاستهانة بأوامر الله وأحكامه، فقد جاءت الآيات عقب الحديث عن إنجائهم من آل فرعون الذين كانوا يذبحون أبنائهم ويستحيون نسائهم ويسومونهم سوء العذاب، فراحوا – بدل أن يشكروه – يتخذون العجل معبوداً لهم من دونه، وبعد اعتذارهم المشوب بـ المكر وعدم الصدق في التوبة، وبعد عفو الله عنهم، أذن سبحانه لخيارهم بالخروج مع موسى فراحوا بسفههم – وهم المختارون – يطلبون منه رؤية من لا تدركه الأبصار – سبحانه – وهو يدرك الأبصار، وبعد أن أخذتهم صاعقة الموت من جراء طلبهم ما يستحيل العقل إدراكه، بعثهم مرة أخرى لعلهم يشكرون، وظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى ورزقهم من الطيبات، وكانوا في كل مرة كعادتهم يقابلون نعم الله بالجحود ويبدلون نعمة الله كفراً، ثم كلفهم فيما بعد – ونزولا ً على رغبتهم – بدخول الأرض المقدسة، فراحوا يتلكئون ويسيئون الأدب مع الله.. إلى آخر ما تبع ذلك من ليهم ومكرهم الذي عادة ما كان يقابل بحلم الله عليهم وقبوله توبتهم، بل وأحياناً بتفضيله لهم على سائر الخلق كلما بدت منهم سابقة خير وبادرة توبة.

ومن المواطن التي أشارت إلى هذا النمط في حياتهم ونصت على إصرارهم وصلابة رقابهم وعلى عنادهم وجحودهم كلما حلت بهم نعم الله، وعلى سعة رحمته بهم أملا في إصلاح أمرهم لكن دون جدوى.. ما جاء في مناجاة نبيهم نحميا عليه السلام في الإصحاح التاسع العدد11 وما بعده وفيه: "وفلقت اليم أمامهم وعبروا في وسط البحر علي اليابسة وطرحت مطارديهم في الأعماق.. ونزلت على جبل سيناء وكلمتهم من السماء وأعطيتهم أحكاما مستقيمة وشرائع صادقة..عن يد موسى عبدك. وأعطيتهم خبزاً من السماء لجوعهم، وأخرجت لهم ماء من الصخرة لعطشهم، وقلت لهم أن يدخلوا الأرض التي رفعت يدك أن تعطيهم إياها.

ولكنهم بغوا هم وآباؤنا وصلبوا رقابهم ولم يسمعوا لوصاياك. وأبوا الاستماع ولم يذكروا عجائبك التي صنعت معهم وصلبوا رقابهم.. فلم تتركهم. مع أنهم عملوا لأنفسهم عجلا ً مسبوكاً وقالوا هذا إلهك الذي أخرجك من مصر وعملوا إهانة عظيمة. أنت برحمتك الكثيرة لم تتركهم في البرية. ولم تمنع منّك عن أفواههم وأعطيتهم ماء لعطشهم. وعُلتهم أربعين سنة في البرية.. وأعطيتهم ممالك وشعوباً.. وأكثرت بينهم كنجوم السماء وأتيت بهم إلى الأرض التي قلت لآبائهم أن يدخلوا ويرثوها. فدخل البنون وورثوا الأرض.. فأكلوا وشبعوا وسمنوا وتلذذوا بخيرك العظيم. وعصوا وتمردوا عليك وطرحوا شريعتك وراء ظهورهم.. فدفعتهم ليد مضايقيهم فضايقوهم، وفي وقت ضيقهم صرخوا إليك وأنت من السماء سمعت، وحسب مراحمك الكثيرة أعطيتهم مخلصين خلصوهم من يد مضايقيهم.

ولكن لما استراحوا رجعوا إلى عمل الشر قدامك فتركتهم بيد أعدائهم فتسلطوا عليهم ثم رجعوا وصرخوا إليك وأنت من السماء سمعت وأنقذتهم حسب مراحمك الكثيرة أحيانا كثيرة. وأشهدت عليهم لتردهم إلى شريعتك، وأما هم فبغوا ولم يسمعوا لوصاياك وأخطئوا ضد أحكامك التي إذا عملها الإنسان يحيا بها، وأعطوا كتفاً معانِدة وصلبوا رقابهم ولم يسمعوا"أ.هـ وينظر مصداق ذلك وتفاصيله في آيات سورة البقرة الآية40 والأعراف الآية 138 وما بعدهما.

وفي المزمور78: 40 وما بعده "كم عصوه في البرية وأحزنوه في القفر.. لم يذكروا يده يوم فداهم

من العدو. حيث جعل في مصر آياته وعجائبه في بلاد صُوعن. إذ حوّل خلجانهم إلى دم.. أرسل عليهم بعوضاً فأكلهم وضفادع فأفسدتهم1.. وهداهم – يعني بني إسرائيل – آمنين فلم يجزعوا.. وطرد الأمم من قدامهم.. فجربوا وعصوا الله العليّ، وشهادته لم يحفظوا. بل ارتدوا وغدروا مثل آبائهم، انحرفوا كقوس مخطئه. أغاظوه بمرتفعاتهم وأغاروه بتماثيلهم. سمع الله فغضب ورذل إسرائيل جداً..".

وفي سفر حزقيال20: 5وما بعده يقول الرب ممتناً على بني إسرائيل: "رفعتُ يدي لنسل بيت يعقوب وعرفتُهم نفسي في أرض مصر ورفعت لهم يدي.. لأخرجهم من أرض مصر إلى الأرض التي تجسّستُها لهم تفيض لبناً وعسلا ً هي فخر كل الأراضي. وقلت لهم اطرحوا كل إنسان منكم أرجاس عينيه ولا تتنجسوا بأصنام مصر.. فتمردوا عليّ ولم يريدوا أن يسمعوا لي.. فقلت إني أسكب رجزي عليهم لأتم عليهم سخطي في وسط أرض مصر. لكن صنعت لأجل اسمي لكيلا يتنجس أمام عيون الأمم الذين هم في وسطهم.. فأخرجتهم من أرض مصر وأتيت بهم إلى البرية. وأعطيتهم فرائضي وعرفتهم أحكامي التي إن عملها إنسان يحيا بها.. فتمرد عليّ بيت إسرائيل في البرية، لم يسلكوا في فرائضي ورفضوا أحكامي.. فقلت إني أسكب رجزي عليهم في البرية لإفنائهم. لكن صنعت لأجل اسمي لكيلا يتنجس أمام عيون الأمم.. ورفعت أيضاً يدي لهم في البرية بأني لا آتي بهم إلى الأرض التي أعطيتهم إياها تفيض لبنا وعسلا ً.. لأنهم رفضوا أحكامي ولم يسلكوا في فرائضي بل نجسوا سبوتي لأن قلبهم ذهب وراء أصنامهم. لكن عيني أشفقت عليهم عن إهلاكهم فلم أفنهم في البرية. وقلت لأبنائهم في البرية لا تسلكوا في فرائض آبائكم ولا تحفظوا أحكامهم ولا تتنجسوا بأصنامهم.. فتمرد الأبناء عليّ.. فقلت إني أسكب رجزي عليهم لأتم سخطي عليهم في البرية. ثم كففت يدي وصنعت لأجل اسمي لكيلا يتنجس أمام عيون الأمم الذين أخرجتهم أمام عيونهم. ورفعت أيضاً يدي لهم في البرية لأفرقهم في الأمم وأذريهم في الأراضي. لأنهم لم يصنعوا أحكامي بل رفضوا فرائضي ونجسوا سبوتي وكانت عيونهم وراء أصنام آبائهم"، وهكذا كان حالهم طوال تاريخهم ومع كافة أنبيائهم وبشهادة جميع أسفارهم.

ويدعونا كل ما سبق ذكره إلى الانتهاء إلى أنه لا محاباة في سنة الله القاضية بأن عهد الله لا يناله الظالمين ولا ينالونه، وأنه وإزاء كفر اليهود ورغبتهم عن ملة أبائهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وتآمرهم وبغيهم على أنبياء الله ورسله، ولقاء ظلمهم وطغيانهم وتحريفهم للكلم عن مواضعه، الذي يؤذن بألا صلاح بعده – على المدى القريب أو البعيد – لأمرهم ولا فائدة ترجى للبشرية من ورائهم، كان لابد حسب ما تقضي به سنن الله الكونية في الاستبدال والاستخلاف، من أن تتحول إمامة وخلا فة وريادة هذا العالم إلى آخرين يحافظون على العهد ويصونون الأمانة ويحفظون الوصايا وينقذون التعاليم، فيستحقون عندئذ وعد الله الذي لم يتحقق لغيرهم لا في الأرض المقدسة وحسب بل في إرث النبوة والأرض جميعاً، حيث يقول تعالى وهو أصدق القائلين:

(إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.. الأعراف/ 128)، ويقول: (وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم.. محمد/38)، "أي: ولكن يكونون سامعين مطيعين له ولأ وامره"2 كما قال: (إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين.. ا لأنعام/133)، وقال: (إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً.. النساء/133)، وقال: (إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد. وما ذلك على الله بعزيز.. إبراهيم/19، 20 وفاطر/ 16، 17)، أي يذهبكم إذا خالفتم أمره ويستخلف من بعدكم قوماً آخرين على غير صفتكم يعملون بطاعته، كما أذهب القرون الأولى وأتى بالتي بعدها وما ذلك عليه بممتنع ولا صعب بل هو سهل عليه يسير لديه3.

مما يعني أن سنة الله في خلقه وكونه لا تتبدل ولا تتغير، بل إنها لتجري حتى في أمة خاتم الأنبياء والمرسلين r ممن هم من نسل إسماعيل كما جرت فيمن هم من نسل إسرائيل، فالمسلمون من أتباع

---

(1) الضمير إلى هنا لفرعون وملئه الذين تمردوا على موسى واتهموه بالسحر والإفساد في الأرض وتطيروا به كلما أصيبوا بجدب أو قحط وأبوا إلا الإ قامة على الكفر بالله وعدم الإيمان بكليمه موسى عليه السلام (وقالوا مهما تأتنا بآية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين. فأرسلنا عليهم الجراد والقمّل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين.. الأعراف/132، 133).
(2) تفسير ابن كثير182/4.
(3) ينظر تفسير ابن كثير564/1، 182/2، 543، 569/3.

محمد r إذا تولوا عن نصرة ربهم وحادوا عن شريعة ربهم ولم يقفوا على أمر دينهم، فسيبتليهم الله بمن يستلب منهم بعض ما بأيديهم ممن لا يرقب فيهم إلا ً ولا ذمة تماماً كما ابتلى الأولون، كما نطقت بذلك الأحاديث، ثم يستبدلهم إذا لم يراجعوا أنفسهم (بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم.. المائدة/54).
ولعل هذا ما يومئ إليه قوله تعالى لمن هو أب لجمهور الأمم: (إني جاعلك للناس [كذا بما يفيد العموم] إماماً)، ثم قوله تعقيباً على سؤاله (ومن ذريتي؟): (لا ينال عدي الظالمين.. البقرة/124)، ولما اقتضت حكمة الله فيما يخص ميراث النبوة أن يجعل نبي بني إسماعيل خاتماً للأنبياء، فقد تعين أن يكون الابتلاء في حرمان أمته إن هي خالفت منهج الله قاصراً على ميراث الحكم والأرض والخلافة دون النبوة، إلى أن يقضي الله فيها أمراً كان مفعولا ً.
وإنما خصت هذه الأمة بميراث النبوة وإن خالفت، لأنها لا ولن تعدم إلى يوم القيامة، علماء عاملين يرثون الأنبياء ويؤدون مهمتهم في تبليغ رسالة السماء، ولأنه (لا يزال طائفة منها ظاهرة على الحق حتى تقوم الساعة).. ولأن سنة الله قضت ضمن ما قضت أن الأمم في أعمارها كالأفراد، لها آجال تنتهي عندها.. فعلى نحو ما هو حاصل للأفراد من أن لكلٍّ أجلا ً إذا جاء لا يؤخر عنه ولا يستقدم، فكذلك الحال بالنسبة للأمم، فإن (لكل أمة أجل) أي وقت معين مضروب لاستئصالهم، (فإذا جاء أجلهم) أي ميقاتهم المقدر لهم (لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون.. الأعراف/ 34)، فمجيئه عبارة عن انقضائه.. فإذا تم وانقضى أجلهم وعمرهم لا يتقدمون عنه ولا يتأخرون، كذا أفاده ابن كثير والآلوسي[1] وغيرهما.
وفي آية الأعراف السالفة الذكر – ونحوها قوله تعالى: (لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون.. يونس/ 49)، وقوله قبلها: (ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون.. يونس/ 47) – ما يدل دلالة واضحة على أن ما قضاه الله من استبدال الصادقين بمن كذبوا، وهلاك أولئك المكذبين الجاحدين، إنما يتوقف على مجيء الرسول وتكذيب الأمة، يقول الآلوسي[2] في تفسير آية: (ولكل أمة رسول):
"لكل أمة من الأمم الخالية رسول يبعث إليهم بشريعة اقتضتها الحكمة ليدعوهم إلى الحق، فإذا جاء رسولهم فبلغهم ودعاهم فكذبوه وخالفوه، قضي بينهم أي بين كل أمة ورسولها بالعدل، وحكم بنجاة الرسول والمؤمنين به وهلاك المكذبين"، يقول ابن عاشور[3]: "وهو قضاء في الدنيا".
وقد سبق بيان أن بني إسرائيل لم يكتفوا في دعوى أنبيائهم بالتكذيب، بل تعداه إلى الاعتداء عليهم بالضرب والرجم والقتل، فأنى لشرف النبوة – والحال هكذا – أن يستمر فيهم؟ وكيف يظل موعود الله بالإمامة والريادة وقد دأب الأبناء والأحفاد على ما كان عليه آباؤهم من مقابلة دعاوى الأنبياء بجميع ألوان الاعتداء وأنواع الإذلال؟ بل كيف يستمران فيهم، ولا يزال تكذيبهم بخاتم أنبياء الله ورسله المبشر به في كتابهم المقدس ماثلا ً للعيان، وهو من كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ويستفتحون به على الذين كفروا، الأمر الذي يعني أنهم كانوا على علم بما سيحدث لهم من انتقال موعود الله عنهم إلى غيرهم جزاء ما كانوا يصنعون؟.
ويستلزم ما سبق ذكره القول بأن على معاصري كل رسول أمة تالية، اتباع نهجه والسير على شريعته إن كان صاحب شريعة، باعتبار أن شريعته تلك ناسخة لما قبلها من شرائع الأمم المنقضي أجلها.. وإذا سلمنا بذلك علمنا أن الأمة اليهودية ونحوها الأمة النصرانية مطالبتان باتباع خاتم الأنبياء ورسول آخر الأمم محمد r، وسلوك نهجه واتباع شريعته وذلك – بالطبع – بعد الإيمان به على نحو الإيمان بغيره من الأنبياء، إذ لا يتحقق هذا إلا بذاك.. وإنما كان الأمر كذلك لأنه وبعد مبعثه أضحى رسول آخر الأمم صلوات الله عليه، رسولا ً لسائر الأمم، وأضحى كتابها الذي تدعى إليه وتحاسب عنه يوم القيامة كتابهم، ولا يلزم كافة الأمم بعده غير ذلك من كتب الأمم المنقضي آجالها.
ولا أدل على هذا مما ورد في مسند أحمد من أن عمر جاء إلى النبي r فعرض عليه جوامع من التوراة فتغير وجه النبي، فقال عمر: رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولا ً، فسـ ُر ّي عنه r

(1) تفسير القرآن العظيم 2/ 216 وروح المعاني 8/ 167مجلد 5، 11/ 192 مجلد 7.
(2) روح المعاني 11/ 189مجلد7 وبنحوه الرازي 8/ 375.
(3) في التحرير والتنوير 11/ 188 مجلد 6

وقال: (والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى عليه السلام ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم)، وفي بعض الأحاديث: (لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلا اتباعي)، "فالرسول محمد خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه – دائماً إلى يوم الدين – هو الإمام الأعظم الذي لو وجد في أي عصر، لكان هو الواجب الطاعة المقدم على الأنبياء كلهم، ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا ببيت المقدس"، كذا ذكره ابن كثير في تفسيره 1/ 378.
كما يدل عليه ما أورده – رحمه الله – في ص 578 من نفس الجزء من حديث أحمد من قوله r: (ا لأنبياء أخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد، وإني أولى الناس بعيسى ابن مريم لأنه لم يكن نبي بيني وبينه، وإنه نازل.. فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويدعو الناس إلى الإسلام، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويهلك في زمانه المسيح الدجال.. ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون)، وفي رواية لابن جرير جاء فيها: (يقاتل الناس على الإسلام)، يقول ابن كثير رحمه الله بعد جملة من هذه الأحاديث:
"هذا إخبار من النبي r بذلك وتقرير وتشريع وتسويغ له على هذا في ذلك الزمان حتى تنزاح عللهم وترتفع شبههم من أنفسهم، ولهذا كلهم يدخلون في دين الإسلام (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً.. النساء/ 159)، وهذه الآية كقوله: (وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون.. الزخرف/ 61)، وقرئ (لعلم) بالتحريك، أي أمارة ودليل على اقتراب الساعة"أ.هـ..
فهلا يتفهم عاقلو أهل الكتاب تلك الحقائق التي يصدِّق فيها كتاب ربنا، ما جاء في ثنايا كتابهم المقدس على الرغم مما احتواه من تحريف؟.

****

الحقيقة السادسة

تقصية هاجر كان بمثابة التمهيد لإيجاد البديل المستحق لموعود الله

****

لقد أراد الله أزلاً من تقصية هاجر التي ورد ذكرها ضمن نصوص العهد القديم والجديد، تحقيق وعد آخر لإبراهيم الخليل، ذلك أنه عليه السلام لما وضع زوجه هاجر وابنها منه – إسماعيل – بأمر الله في جزيرة العرب توطئة لرفع قواعد البيت الحرام، وإيذانا بأعمار هذا المكان، وإعداده للطائفين والعاكفين والركع السجود، جأر إلى ربه ودعا ضمن ما دعا: (ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم.. البقرة/129).

وقد وافقت هذه الدعوة التي أجيبت بعد حين، قضاء الله الأزلي في بعث محمد عليه السلام رسولاً في الأميين، بل وإلى سائر الأعجمين من الإنس والجن، فكانت هذه الرسالة العامة وهذا التحول المشرف.. ليس إجابة لدعوة إبراهيم فحسب، ولا فقط إنفاذاً لبشارة عيسى وإعمالاً للميثاق الذي قطعه الله عليه وعلى سائر الأنبياء بأن ينصروه ويؤمنوا به ويأمروا بذلك أقوامهم1.. بل إنقاذاً في المقام الأول للبشرية وللكون من الوهدة التي سقطا فيها، والذي سببه لهما إفساد بني إسرائيل في الأرض.

وفي شأن ذلك من نصوص التوراة الدالة على هذا التواصل الممتد في سلالة إسماعيل والممهد لإيجاد البديل المستحق لوعد الله، جاء في سفر ملاخي4: 5-6: "هاأنذا أرسل إليكم إيلياء النبي قبل مجيء يوم الرب. اليوم العظيم والمخوف. فيرد قلب الآباء على الأبناء. وقلب الأبناء على الآباء لئلا آتى وأضرب الأرض بلعن".

والمعنى واضح في أن المراد: أرسل إليكم قرب الساعة النبي محمد عليه السلام2، فيرد بني إسماعيل من العرب لحقيقة وحي الأنبياء والمرسلين، ويرد قلوب اليهود والنصارى إلى دين آبائهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى عليهم السلام، والعجيب أن تأتى هذه البشارة في آخر ما في كتب العهد القديم، وكأنها كلمة الله ووصيته الأخيرة لبني إسرائيل بل ولغيرهم من أهل الكتاب، وصدق الله القائل حكاية عمن غيروا وبدلوا وحادوا عن الحق: (وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين. قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون.. البقرة/135، 136)، والقائل في خطابه لنبيه محمد : (ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين.. النحل/123)، ولأمته: (وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس.. الحج/78).

وفي سفر إشعياء42/ 1، 2 ،11-13: "هو ذا عبدي الذي أعضده، مختاري الذي سُرّت به نفسي وضعت روحي عليه فيُخرج الحق للأمم. لا يصيح ولا يرفع ولا يُسمَع في الشارع صوته.. لترفع البرية ومدنها صوتها الديارُ التي سكنها قيدار، لتترنم سكان سالع من رؤوس الجبال ليهتفوا. ليعطوا الرب مجداً ويخبروا بتسبيحه في الجزائر. الرب كالجبار يخرج، كرجل حروب يُنهض غيرته، يهتف ويصرخ ويقوى على أعدائه"3.

---

(1) على نحو ما جاء في قول الله تعالى: (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين .. آل عمران/81).

(2) ذلك أن لفظ (إيلياء) بحساب الجمل المطابق للحروف الهجائية في اللغة العبرانية، يضارع لفظ (محمد) فكلاهما يساوى ما مجموعه ثلاثة وخمسين حرفاً ويؤكد ما جاء في التوراة هنا، ما جاء في إنجيل يوحنا الذي كان معاصراً للمسيح وذلك حين أنكر أنه النبي المنتظر، فقد جاءه وفد من علماء بني إسرائيل، "يسألونه من أنت؟ فاعترف ولم ينكر، وأقر إني لست المسيح، فسألوه إذاً ماذا، أإيلياء أنت؟ فقال: لست إياه... يوحنا 1: 19-21"، فهذه شهادة يوحنا المعمدان وهو يحيى بن زكريا التي تفيد أن اليهود كانوا ينتظرون المسيح ونبي آخر يدعى إيلياء، وقد جاء المسيح ولم يبق إلا نبي آخر الزمان (إيلياء) الذي ينتظره الكل، "ويرد كل شيء" [متى 17: 11]، والتي لا تنطبق أوصافه في التوراة والإنجيل إلا على محمد ، ويؤكد ما جاء فيهما قوله سبحانه في كتاب المسلمين: (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ..البقرة/89)، وقوله: (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم .. البقرة/146)، وقوله: (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل .. الأعراف/157).

(3) ينظر شرح هذه البشارة ونظيراتها من نحو ما جاء في الزبور 149: 1-9، وإشعياء 54: 1-17.. إظهار الحق 4/1154-1164، و(محمد نبي الإسلام) للطهطاوي ص 18، 19.

وهذا واضح أيضاً في الكلام عن نبي يظهر في بلاد العرب ويكون من سلالة قيدار أحد أبناء إسماعيل ، وهذا النبي قد اختاره الرب ليعلي مجد الإسلام ويعلن الحرب على أعدائه، ويجدد دعوة أبيه إبراهيم في الناس بالحج والدعاء على رؤوس الجبال في عرفات والمزدلفة ومنى بمكة محل مساكن قيدار، ومعلوم أنه لم يكن عند الإسرائيليين حج كما لم يكن عند المسيحيين حتى يقال: إن المراد بهذا النص وما جاء على شاكلته غير المسلمين من ذرية إسماعيل.. وقد سبق أن ذكرنا من نصوص العهد الجديد في هذا الصدد – على سبيل الاستشهاد – ما به تقام الحجة.. وإلا فبشارات التوراة والإ نجيل بصفاته وبمقدمه عليه الصلاة والسلام أكثر من أن تحصى1.

ونرمق تأييد القران لما ألمحت إليه الكتب السابقة في مثل قوله تعالى على لسان إبراهيم حين أودع زوجه وولده إسماعيل بواد غير ذي زرع (رب اجعل هذا البلد آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر.. البقرة/ 126)، (ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون.. إبراهيم/37)، ناهيك عن دعائه الصريح بأن يبعث في ذرية من أودعه عند بيته المحرم من به – على أساس من منهج الله – يستمر صلاح الكون، وتستقيم حركة الحياة والأحياء، ويتحقق موعود الله له بوراثة الأرض وإمامة من عليها.

وإذا كان القرآن قد قص لنا من دعاء إبراهيم إبان إيداعه زوجه هاجر وابنها منه عند البيت الحرام، ما يومئ إلى نقل موعود الله إلى بني إسماعيل.. فقد جاء في أسفار اليهود ما يفيد ذلك أيضاً ويومئ إليه، ففي سفر التكوين 22: 16- 18رغم ما انتابه من تحريف[2]: أنه لما هم إبراهيم بذبح خصيصه وابنه الوحيد، سر الله من قوة إيمانه وأرسل إليه ملاكاً ناداه ثانية بقوله: "بذاتي أقسمت، يقول الرب: إني من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك. أباركك مباركة وأكثر نسلك تكثيراً كنجوم السماء وكالرمل الذي على شاطئ البحر، ويرث نسلك باب أعدائه . ويتبارك في نسلك جميع أمم الأ رض من أجل أنك سمعت لقولي"، وقبلها 22: 11- 13جاء ما نصه: "فناداه ملاك الرب من السماء وقال إبراهيم فقال: هاأنذا . فقال لا تمد يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئاً لأني الآن علمت ُ أنك خائف ٌ الله فلم تمسك ابنك وحيدك عني . فرفع إبراهيم عينيه ونظر وإذا كبش وراءه ممسَكاً في الغابة بقرنيه، فذهب إبراهيم وأخذ الكبش وأصعده مُحرقةً عوضاً عن ابنه".

ويدرك أي منصف أن الذبيح هنا هو إسماعيل، إذ لا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاد إبراهيم وأنه الذي ظل وحيد أبيه قرابة أربع عشرة سنة كما جاء التصريح بذلك في سفر التكوين 16: 1، 2، 4، 15، 16 ونصه: "وأما ساراي امرأة أبرام فلم تلد له وكانت لها جارية مصرية اسمها هاجر. فقالت ساراي لأبرام هو ذا الرب قد أمسكني عن الولادة أدخل على جاريتي لعلي أرزق منها بنين فسمع إبرام لقول ساراي.. فدخل على هاجر فحبلت ولما رأت أنها حبلت صغُرتْ مولاتها في عينيها.. فولدت هاجر لأبرام ابناً ودعا أبرام اسم ابنه الذي ولدته هاجر، إسماعيل. كان أبرام ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر إسماعيل لأبرام".. وبعد أن قال الرب لأبرام تكوين 17: 4-9"هو ذا عهدي معك وتكون أباً لجمهور من الأمم. فلا يدعى اسمك بعدُ أبرام بل يكون اسمك إبراهيم لأني أجعلك أباً لجمهور من الأمم. وأثمرك كثيراً جداً وأجعلك أمماً، وملوك ٌ منك يخرجون . وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهداً أبدياً لأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك. وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكاً أبدياً وأكون إلههم"، في إشارة لما جاء في قوله تعالى:

(إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين. ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله

---

(1) بل لهذا مجلدات ومراجع لا يحصيها عد، نذكر منها للاستزادة (الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام) للقرطبي، و(الأجوبة الفاخرة عن ا لأسئلة الفاجرة) للقرافي، و(الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) لابن تيمية، و(هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى) لابن القيم، و(الجواب الفسيح) للإمام الآلوسي البغدادي، و(محمد رسول الله، هكذا بشرت الأناجيل) لبشرى زخاري ميخائيل، و(إظهار الحق) لرحمت الله الهندي، و(محمد نبي الإسلام في التوراة والإنجيل والقرآن) للطهطاوي.

(2) فقد تم – على يد كتيبة العهد القديم – إخفاء وطمس تفاصيل ما جرى مع نبي الله إسماعيل و"من يراجع التوراة التي بين الأيدي والتي كتبها (عزرا) في منفى بابل، يجدها قد حرفت حقائق التاريخ وأنكرت حق آل إبراهيم في الوعد الإلهي وقصرته على بني إسرائيل، وتجاهلت رحلة إبراهيم وإسماعيل إلى الحجاز وبناء الكعبة، صمتت التوراة – على حد قول أ. الجندي في موسوعته 10/ 675– صمتاً شديداً عن كل ما يتصل بعلاقة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بالجزيرة العربية ومكة وبناء الكعبة، والهدف هو إخراج أبناء إسماعيل من حقوق الوعد الذي تلقاه إبراهيم عن ربه وجعله في الصالحين من ذريته" على النحو الذي سجله القرآن.

اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون.. البقرة/131، 132).. "قال الله لإبراهيم ساراي امرأتك لا تدعو اسمها ساراي بل اسمها سارة. وأباركها وأعطيك أيضاً منها ابناً، أباركها فتكون أمماً وملوك شعوب منها يكونون. فسقط إبراهيم على وجهه وضحك وقال في قلبه هل يولد لابن مائة سنة وهل تلد سارة وهي بنت تسعين سنة"تكوين17: 15-17.
ولا معنى لهذا – بضميمة ما سبق – إلا أن يكون الوحيد لأبيه وأن يظل كذلك لما يقرب من أربعة عشر عاماً، هو إسماعيل.. فكيف يكون إسحاق وحيد إبراهيم وبكره؟، ومن يكون الذبيح إذاً؟.. كما لا معنى له إلا أن يحكم على من ادعى من كتبة العهد القديم بـ "أن الله امتحن إبراهيم.. فقال: خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحاق، واذهب إلى أرض المُريّا.. فلما أتيا إلى الموضع الذي قال له الله، بنى هناك إبراهيم المذبح ورتب الحطب وربط إسحاق ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب. ثم مد إبراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه. فناداه ملاك الرب من السماء.. فقال لا تمد يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئاً لأني الآن علمت أنك خائف ً الله فلم تمسك ابنك وحيدك عني" تكوين 22: 1-2، 9-12.. بل وعلى من ادعى من كتبة العهد الجديد متسائلا ً: "ألم يتبرر – يعني يصبح باراً ومطيعاً لأ مر ربه – إبراهيم بالأعمال إذ قدّم إسحاق ابنه على المذبح؟" رسالة يعقوب2: 21.. بواحد من اثنين: إما أنه يستخف بعقول قراء العهدين القديم والجديد، وإما أنه يهرف بما لا يعرف، لأن من كان وحيد إبراهيم ساعة إقدامه على ذبح ولده وبنص التوراة هو إسماعيل لا إسحاق1 الذي ما ذهب إلى أرض الحجاز[2] قط، وبالتالي يكون ما جاء في التوراة من قول الرب: "إني من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك. أباركك مباركة وأكثر نسلك تكثيراً كنجوم السماء وكالرمل الذي على شاطئ البحر ويرث نسلك باب أعدائه"، تكوين22: 16-17هو من نصيب ولد إسماعيل بعد تحول موعود الله إليهم، بقرينة لفظة "وحيدك" التي تكررت مراراً وبدليل ما يومئ إلى هذا التحول من قول الرب: "ويرث نسلك باب أعدائه"، إذ لا معنى له إلا أخذ ميراث الحكم والنبوة ممن لم يحافظوا عليهما من ولد إسرائيل ممن عادوا الله ورسله وإعطائه لأهله ممن حفظوا وصايا الرب وشرائعه من ولد إسماعيل.. وتلك والله عاجل بشرانا لتحرير هذه البلاد من رجسهم.
لكن معشر يهود مع اعترافهم بهذا وزعمهم الإيمان بما أنزل عليهم وتمحكهم في تسمية دولتهم باسم نبي الله يعقوب، يجادلون ويتجاهلون هذه الحقائق، ويحسدون أبناء عمومتهم على ما حباهم الله به من شرف، ويأبى الله إلا أن يرجع الفضل في ذلك لأهله، وهذا كتاب ربنا ينطق عليهم بالحق حيث يقول رب العزة في فضح تجاهلهم وتعاميهم عن الحق: (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم.. البقرة/ 146)، ويقول: (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل.. الأعراف/157).. قال الحسن البصري فيما رواه ابن كثير 188/1: "كانوا يقرءون في كتاب الله الذي آتاهم: أن الدين عند الله الإسلام وأن محمداً رسول الله وأن إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا برآء من اليهودية والنصرانية، فشهدوا لله بذلك وأقروا على أنفسهم لله، فكتموا شهادة الله عندهم"3.. وارتكبوا بصنيعهم هذا، الخيانة التي تستوجب استبدال غيرهم بهم، وأقيمت عليهم وبنص كتبهم الحجة.
لقد وصل علم معشر يهود بمقدم نبي بني إسماعيل ومعرفة أوصافه لحد أن كانوا يتوعدون الأوس و الخزرج بقرب قدومه ويقولون لهم: سنتبعه ونقاتلكم به قتل عاد وإرم، ويستفتحون به (على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به.. البقرة/ 89)، ولحد أن "قال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور: يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد r ونحن أهل شرك

---

(1) إذ كيف يسوغ أن تبشر أمه قبل ولادته به وبمن وراءه على ما أفاده قوله تعالى: (وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب.. هود/71)، يعني بولده، ثم يأمر الله بذبحه؟ وكيف يسوغ لإبراهيم أن يؤمر من قبل الرب بإبعاد هاجر وابنها إسماعيل وأن يودعهما في الأرض الموحشة رحمة بسارة بعد أن اشتدت غيرتها ثم يؤمر بذبح ابنها ويدع ابن الجارية بحاله، والحق أن دعوى أن يكون الذبيح (إسحاق) لا تقوم على ساق – على حد ما ذكر ابن القيم – ومن ثم ساغ له أن يرد على ما جاء في هذه الدعوى من أكثر من عشرين وجهاً.. ينظر في تفصيل ذلك زاد لمعاد 15/1 وما بعدها.

([2]) ومسماها في الكتاب المقدس: جبال أو برية فاران: حبقوق 3/ 3، جزائر كِتيّم: إرميا 2/ 10.

(3) وفي معنى ما ذكر يقول القرطبي في تفسيره 6213/9 لقول الله تعالى: (ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين. وآتيناهم بينات من الأمر): يعني أمر النبي r وشواهد نبوته بأنه يهاجر من تهامة إلى يثرب وينصره أهل يثرب (فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم.. الجاثية/ 16، 17).

وتخبروننا بأنه مبعوث، وتصفونه لنا بصفته"[1].
وكان مما قاله الحبر اليهودي عبد الله بن سلام في قصة إسلامه وكشف خباياهم: "لما سمعت الخبر بقدوم رسول الله r فقالت لي عمتي حين سمعت تكبيري: خيبك الله، والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادماً ما زدت.. قلت لها: أي عمة والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه، بعث بما بعث به، فقالت: أي ابن أخي، أهو النبي الذي كنا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة؟، فقلت لها: نعم، فقالت: فذاك إذاً، قال: ثم خرجت إلى رسول الله r، فأسلمت ثم رجعت إلى أهل بيتي فأمرتهم فأسلموا"، كذا هو في سيرة ابن هشام2/ 118.. ولما قيل له: "أتعرف محمداً كما تعرف ولدك؟ قال: نعم وأكثر، نزل الأ مين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته، وإني لا أدري ما كان من أم ّه"2.
ومما يذكر في هذا الصدد أنه جـ ـَلت قدرته بـ ـَكـ ـّت العرب الكافرين وأنكر عليهم عدم إيمانهم بـ ـالنبي محمد r مع وجود آية عظيمة تدل على صدق نبوته وثبوت رسالته، وكانت تلك الآية هي معرفة علماء بني إسرائيل وشهادتهم له بأنه نبي من عند الله كما قال تعالى: (أو لم يكن له آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل.. الشعراء/ 197)، يقول الحافظ ابن كثير3/ 359: "والمراد العدول منهم الذين يعترفون بما في أيديهم من صفة محمد r ومبعثه وأمته كما أخبر بذلك من آمن منهم كعبد الله بن سـ ـلام وسلمان الفارسي عمن أدركه منهم ومن شاكلتهم"أ.هـ
إنها القلوب المريضة القاسية، والعقول المارقة الشاردة، والنفوس الحاسدة الحاقدة التي طالما ابتغتها عوجاً والتمست الهدى في غير طريق الله المستقيم بغياً وعدواً ومكابرة وعناداً، ففيما رواه ابن إسحاق وابن هشام في سيرته1/ 196من حديث سلمة بن سلامة بن وقش وأخرجه أحمد وصححه ابن حبان من طريقه، قال: "كان لنا جار من اليهود بالمدينة، فخرج علينا قبل البعثة بزمان فذكر الحشر والجنة والنار، فقلنا له: وما آية ذلك؟ قال: خروج نبي يبعث من هذه البلاد وأشار إلى مكة، فقالوا: متى يقع ذلك؟ قال: فرمى ببصره إلى السماء وأنا أصغر القوم، فقال: إن يستنفِذ هذا الغلام عـ ـُمـ ـْرـ ـَه يدركه، قال سلمة: فوالله ما ذهبت الأيام والليالي حتى بعث الله نبيه وهو حيّ بين أظهرنا، فآمنا وكفر هو بغياً وحسداً".
وفي الخبر عن صفية بنت حيي رضي الله عنها قالت: (لما قدم الرسول المدينة ونزل قباء، غدا عليه حيي بن أخطب3 وعمي أبو ياسر بن أخطب.. فهششت إليهما فما التفتَ إليّ واحد منهما مع ما بهما من الهمّ، فسمعت عمي أبا ياسر يقول لأبي أهو هو [أي المبشر به في التوراة]، قال: نعم والله، قـ ـال: أتعرفه وتثبته؟، قال: نعم قال فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت أبداً)4، فتلك شهادة بأنه هو عينه الموجود ذكره وصفته في كتب القوم، والشهادة إذا جاءت من العدو انتفت عنها تهمة التحيز وكان لها مزيد فضل لكونها شهادة حق على ما جاء في قول بعضهم:

ومليحـة شهدت لها ضراتها * والفضل ما شهدت به الأعداء

وآخر:

شهد الأنام بفضله حتى العدا * والفضل ما شهدت به الأعداء

والحق أن نفوس يهود المريضة طفحت بهذه العداوة حتى قبل مبعثه ، ويظهر ذلك في قول بحيرى الراهب لعمه حين اصطحبه في بعض قوافل الشام، وذلك بعد أن تفرس في وجهه عليه السلام ورأى فيه شيئاً من علامات النبوة فأشار على عمه بقوله: "ارجع بابن أخيك إلى بلده واحترز عليه من يهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغُنّه شراً، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم، فأسرع به إلى بلاده"، وإنما حدا ببحيرى لأن يفعل ما فعل وينصح بما نصح به، ما عرفه عن يهود من حقد وغدر وخوف من أن ينتقل موعود الله ويتحول عنهم إليه وإلى أمته.. يعضد هذا ما أفاده ابن إسحاق وابن هشام حين ذكرا أن ژريراً وتمّاماً ودَريساً – وهم نفر من أهل الكتاب – كانوا قد رأوا في رسول الله ما ارتآه بحيرى، فأرادوه فردهم عنه بحيرى، وذكـ ـّرهم بـالله وما يجدونه في الكتاب من ذكره وصفته، وأنهم إن أجمعوا لما أرادوه به لم يخلصوا إليه، وخوفهم من أهله وعشيرته، ولم يزل بهم

(1) سيرة ابن هشام 2/ 140، وينظر 136، 152، وينظر تفسير القاسمي2/ 188.
(2) ينظر تفسير ابن كثير 1/ 124، 194.. والأمّة: لغة في الوالدة، وجمعها أمات وأمهات.
(3) أحد أشهر زعماء يهود بني النضير، ومن حلفاء الخزرج وكان يلقب بسيد الحاضر والبادي.
(4) ينظر السيرة النبوية لابن هشام2/ 119، 139 والبداية والنهاية 230/3 وإظهار الحق1125/4- 1128.

حتى عرفوا ما قال لهم بحيرى وصدقوه بما قال، فتركوه وانصرفوا عنه1.
ويبقي بعد كل هذا وعلي الرغم منه، عتاب الله لهم ودعوته إياهم على لسان ذاك الذي يجحدون فضله، وذلك في نحو قوله تعالى: (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله)، (يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون)، (يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون).. آل عمران/ 64، 65، 71.. وقوله: (قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم)، (قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل).. المائدة/ 68، 77.

****

الحقيقة السابعة
الإيذان بتحول الإمامة كان في ليلة التتويج
(ليلة الإسراء)
****

وعلى نحو ما كانت إمامة النبي ليلة الإسراء بإخوانه من الأنبياء عن طواعية وطيب نفس، تأكيداً على وحدة الدين وإشارة واضحة إلى أن النبوات يـ ُصـ ـدّ ـِّق بعضها بعضا ويمهد السابق منها للا حق، ودليلا ً على أن المسلمين هم أولى الناس بميراث الأنبياء والمرسلين كما قال r: (نحن أولى بموسى منكم)، وإقراراً مبيناً بأن الإسلام كلمة الله الأولى والأخيرة إلى خلقه، أخذت كما هي على يد رسولنا r بعد أن وطأ لها العباد الصالحون من رسل الله الأولين2.. فقد كانت كذلك تتويجاً مشرفاً لهذا النبي الخاتم ولأمته وإنفاذاً مرتقباً لسنن الله الكونية والشرعية في الاستبدال والاستخلاف، وفي تحول الإمامة والقيادة والخلافة من بني إسرائيل الذين رغبوا عن ملة إبراهيم فسفهت بذلك نفوسهم ، إلى إخوتهم وبني أعمامهم من بني إسماعيل الذين رغبوا فيها.
ولأن الله خلق الخلق لعبادته وقد تخلى بنو إسرائيل – أعنى أحفادهم ممن هم من صلبه – عن تأدية هذه المهمة، وفعلوا ما استوجب استبدال غيرهم بهم، فان الحكمة تقتضي وفق سنة الله التي لا تتبدل ولا تتغير، أن يستعاض عنهم بآخرين، ولا بد أن يكونوا هنا من أبناء العم لكونهم ممن قال إبراهيم: (ومن ذريتي؟)، وأن يأتي من صلب إسماعيل الذي هو من نسل إبراهيم أيضاً، من يجدد هذه الملة ويرسخ معالمها ويقيم عوجها ويرسي دعائمها ويرفع بنيانها ويعيد أمجادها ويعلي من قدرها، وهذا ما حدث بالفعل ليلة الإسراء التي انتقل فيها إرث الملك والنبوة إلى محمد r والمؤمنين به من أمته بعد فترة تمهيد استمرت ما يزيد عن العشر سنوات من يوم مولده r، وما يزيد عن الستمائة عام من بعد رفع عيسى آخر أنبيائهم إلى السماء وإنجاء الله له من محاولة البطش به.
الأمر الذي يعنى ضمناً أن هذه الأمة هي وحدها المؤهلة لوراثة أرض النبوات أرض الميعاد – بيت المقدس وسائر الأراضي الفلسطينية – وليس هذا في شريعة المسلمين فحسب بل وفي كتب اليهود والنصارى أيضاً، فقد ورد في سفر حجي2: 6-9 "قال رب الجنود: هي مرة بعد قليل فأزلزل السماوات والأرض والبحر واليابسة. وأزلزل كل الأمم ويأتي مشتهى كل الأمم فأملأ هذا البيت مجداً.. مجد هذا

(1) ينظر صفوة الصفوة لابن الجوزي 47/1 والبداية والنهاية لابن كثير 250/2وسيرة ابن هشام 167/1 والروض الأنف للسهيلي 182/1
(2) ينظر فقه السيرة لمحمد الغزالي ص140، 141.

البيت الأخير يكون أعظم من مجد الأول، قال رب الجنود، وفي هذا المكان أعطى السلام" انتهى النص، ومشتهى كل الأمم المذكور فيه، أصله العبراني (حمدون) أي محمود الأمم، وهذا بصريح نبوة حجي ينطبق على سيدنا محمد r لكون اسم (محمود) هو من ضمن أسمائه، ويتضح من النبوءة أن المراد من البيت بيت المقدس.
وحين أسري إلى هذا البيت برسولنا r في حياته، زاد ذلك من شرفه ور َفع من مكانته، ومن ثمّ توجهت إليه أنظاره وأنظار الموحدين الذاكرين الممجدين لله من أمته فكان أولى قبلتي المسلمين، وهذا ما يوافق عبارة "أملأ هذا البيت مجداً"، أما بعد وفاته r فقد قام المسلمون بفتحه[1] وفى هذا المكان أعطى رب الجنود السلام الذي أتى به رسول الرحمة والسلام، ونشره الخليفة عمر بن الخطاب في ربوع هذه البلاد المقدسة، فقد أعطى رضوان الله عليه الأمان لبيت المقدس ولبطريرك المدينة بل ولسائر أهلها بعقد المعاهدة وتوثيق شروط الصلح.. والملفت في قوله: "في هذا المكان أعطى السلام" ، انه لم يقل (وأعطي مشتهى الأمم السلام)، أو نحو ذلك من عبارات تفيد أنه عليه السلام بنفسه الذي يتولى تسليم بيت المقدس ونشر الإسلام فيه، لعلم الله أزلا ً أن الذي سيتولى هذه المهمة هو واحد من أخلص خلصائه، وقد كان ذلك – بالفعل – لأمير المؤمنين عمر بمحضر ومشهد من أصحاب مشتهى الأمم صلوات الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً[2].
وتحكي كتب التاريخ أنه لما أذل الله الروم، وتكامل للمسلمين فتوح الشام واستقر أمرهم على فتح بيت المقدس، وحاصر المسلمون أهله قرابة أربعة أشهر في أشد قتال، نظر أهل بيت المقدس إلى شدة الحصار ورأوا ما حل بهم ووقفوا بين يدي البطريرك وقالوا: قد عظم الأمر ونريد منك أن تشرف على القوم وتسأل: ما الذي يريدون؟ فإن كان أمراً صعباً فتحنا الأبواب وخرجنا إليهم، فإما أن نقتل عن آخرنا، أو نهزمهم عنا، فأجابهم البطريرك إلى ذلك، وصعد في السور واجتمع القسيسون والرهبان حوله ونادى رجل: يا معشر الفرسان، عمدة دين النصرانية قد أقبل يخاطبكم فليدن منا أميركم، فقام أبو عبيدة يمشي ومعه جماعة من أصحاب رسول لله، فلما وقف بإزائهم قال: ما الذي تريدون؟ قال البطريرك: إنكم لو أقمتم علينا عشرين سنة لم تصلوا إلى فتح بلدنا، وإنما يفتحها رجل ليس معكم، فقال أبو عبيدة: وما صفة من يفتح بلدكم؟ قال: لا نخبركم بصفته، ولكن قرأنا أن هذا البلد يفتحه صاحب لمحمد يعرف بالفاروق، لا تأخذه في الله لومة لائم، ولسنا نرى صفته فيكم.
فلما سمع أبو عبيدة كلام البطريرك تبسم وقال: فتحنا البلد ورب الكعبة، ثم أقبل على البطريرك وقال: إن رأيت الرجل تعرفه، قال: نعم، وكيف لا أعرفه؟ قال أبو عبيدة: هو والله خليفتنا وصاحب نبينا، قال البطريرك: فإذا كان الأمر على ما ذكرت فاحقن الدماء وابعث إلى صاحبك، فإذا رأيناه وتبيّنا نعته فتحنا له البلد وأعطيناه الجزية، فلما بعث أبو عبيدة في طلبه وأقدم عليهم عمر بمرقعته ونظر إليه البطريرك زعق وقال: هذا والله الذي صفته في كتبنا وخرج ومن معه يسألونه العهد.
وكان مما فاه به البطريرك من قبل عندما أخبر بجيش المسلمين يقوده أبو عبيدة: ما هذه الضجة التي أسمع؟ قالوا: قد قدم أمير المسلمين ببقية المسلمين، فلما سمع ذلك تربّد وجهه وقال: إنا وجدنا في علمنا الذي ورثناه أن من يفتح الأرض هو الرجل الأحمر، صاحب نبيهم (محمد) فإن كان قدم عليكم فلا سبيل إلى قتاله، ولابد أن أشرف عليه وانظر إلى صفته، فإن كان هو أجبته إلى ما يريد وإن كان غيره فلا بأس عليكم.. فلما رأى أبا عبيدة نظر إليه ملياً ثم قال: ليس هو الرجل فأبشروا وقاتلوا عن دينكم وحريمكم، ثم كان ما حكيناه مما مر ذكره.
وكان من المفترض بعد ما أوضحـ ـتـ ـه كل هذه النصوص الواردة على مدار هذا البحث في الإنجيل خاصة، وإزاء هذا التحول وتلك المواقف وهذا التعاون ممن هم من السابقين أدرى وأعلم بنصوص الإنجيل.. أن يواصل أتباع المسيح عليه السلام في هذه الآونة بالذات، دعمهم لأتباع ولجند النبي محمد r، وأن يقدموا العون الكافي على هذا النحو السالف الذكر كيما يحققوا ما جاء على لسان كلمة الله التي ألقاها إلى مريم وروح منه، بدلاً من أن يخونوا الأمانة وينقضوا العهد ويخالفوا تعاليم الرب.
ففيما يخالف هذه الروح من التعاون من أهل الإنجيل وما كان عليه أسلافهم، وفي سؤال طرحه د. أحمد شلبي في موسوعة الحضارة الإسلامية12- 90عما استطاعت المجتمعات الغربية أن ترسخه

(1) وذلك بعد أن مهد عليه السلام لهذا الأمر بغزو الروم.
(2) ينظر (محمد نبي الإسلام في التوراة والإنجيل والقرآن) للطهطاوي ص:26.

في مجتمعات الشرق من قيم أخلاقية حميدة من أمانة وحسن معاملة.. إلى غير ذلك؟، كان جوابه: "وأين الأمانة وحسن المعاملة عندما سلم الإنجليز فلسطين لليهود بعد أن عينوا (هربرت صموئيل) الصهيوني، مندوباً سامياً بفلسطين، فخان بإيعاز من الغرب أمانة الانتداب وانحاز لليهود في كل الشئون، فكوّن منهم جيشاً وعمل على أن يمتلك اليهود الأرض، واتخذ الوسائل الظالمة ليبيع الكثيرون من الفلسطينيين أرضهم لليهود؟".

ومهما يكن من أمر، فليس ثمة ما يدل على هذا التحول والانتقال عندنا معاشر المسلمين، أعظم من إمامته صلوات الله وسلامه عليه لجميع الأنبياء والمرسلين في المسجد الأقصى، وذلك عندما حان وقت صلاة الفجر من صبيحة ليلة التتويج المباركة، وفى هذا يروي مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب الإيمان قوله r: (لقد رأيتني في الحـ ـِجـ ـْر وقريش تسألني عن مسراي فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، فكربت ُ كربة ما كربت ُ مثله قط، قال: فرفعه الله إليّ أنظر إليه ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم به، وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء، فإذا موسى قائم يصلى فإذا رجل ضرب جعد كأنه من رجال شنوءة1 وإذا عيسى بن مريم عليه السلام قائم يصلى أقرب الناس به شبهاً عروة بن مسعود الثقفي، وإذا إبراهيم عليه السلام قائم يصلى أشبه الناس به صاحبكم – يعنى نفسه – فحانت الصلاة فأممتهم.. الحديث) 2.. وفي رواية ابن مسعود وهي عند مسلم أيضاً: (وحانت الصلاة فأممتهم)، وفي مسند أحمد من حديث ابن عباس [2324] وإسناده صحيح، بلفظ (فلما دخل النبي r المسجد الأقصى قام يصلي فالتفت ثم التفت – يعني عن يمنة ويسره – فإذا النبيون أجمعون يصلون معه).

وفي كيفية ذلك وهيئته، أخرج الطبري عن أنس من طريق قتادة بلفظ: (ثم أتيت بدابة يقال لها البراق فوق الحمار ودون البغل يقع خطوه منتهى طرفه، فحُملت عليه ثم انطلقنا – يعني هو وجبريل – حتى أتينا إلى بيت المقدس فصليت فيه بالنبيين والمرسلين إماماً ثم عرج بي إلى السماء).. وفي رواية ثانية أوردها عنه من طريق شريك بن أبي نمر (ثم ركب البراق فسار حتى أتي به إلى بيت المقدس فصلى فيه بالنبيين والمرسلين إماماً ثم عرج به).. وفي ثالثة أوردها أيضاً عنه من طريق عبد الرحمن بن هاشم لكن بلفظ: (ثم بعث له آدم فمن دونه من الأنبياء فأمّهم رسول الله r تلك الليلة).. وفي أخرى من طريق يزيد بن أبي مالك: (ثم دخلت بيت المقدس فجمع لي الأنبياء فقدمني جبريل حتى أممتهم).

وفي حديث أبي أمامة عند الطبراني في الأوسط: (ثم أقيمت الصلاة فدافعوا حتى قدموا محمداً)، وقد ذكر ابن حجر في حديث الإسراء وباب المعراج 158/7، 164 وابن كثير في صدر تفسيره لسورة الإسراء بعض هذه الروايات، ومما أورده الأخير في شأن إمامته عليه السلام ما أخرجه البيهقي عن ابن مسعود من طريق قتادة التيمي وفيه: (ثم اندفعنا حتى انتهينا إلى المسجد الأقصى، فنزلت فربطت الدابة في الحلقة التي في باب المسجد التي كانت الأنبياء تربط بها، ثم دخلت المسجد فعرفت النبيين من بين قائم وراكع وساجد، قال: ثم أتيت ُ بكأسين من عسل ولبن فشربت فضرب جبريل عليه السلام منكبي وقال أصبت الفطرة ورب الكعبة، قال: ثم أقيمت الصلاة فأممتهم..)3.

إنها الإشارة الواضحة إلى تحول المسار وإسلاس القيادة وتسلم لواءها من قِبَل أصحاب الرسالات

---

(1) الضرب من الرجال: الوسط في كثرة اللحم وقلته، والجعد: المسترسل الشعر، وشَنُوءة: قبيلة عربية.

(2) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب ذكر المسيح 192/2من المجلد الأول حديث رقم 278.

(3) ومن القصص العجيبة في هذا، ما ذكره الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في دلائل النبوة من قول أبي سفيان لما استدعى هرقل من بالشام يستفتهم عن أمر النبي عليه السلام وكان أبو سفيان على رأسهم: "والله ما منعني من أن أقول عليه قولا ً أسقطه من عينه، إلا أني أكره أن أكذب عنده كذبة يأخذها عليّ ولا يصدقني في شيء، حتى ذكرت قوله ليلة أسري به فقلت: أيها الملك ألا أخبرك خبراً تعرف أنه قد كذب؟ قال: وما هو؟ قلت: إنه يزعم أنه خرج من أرضنا من أرض الحرم في ليلة، فجاء مسجدكم هذا مسجد إيليا ورجع إلينا تلك الليلة قبل الصباح، فقال بطريرك إيليا وكان عند رأس قيصر: قد علمت تلك الليلة، فنظر إليه قيصر وقال: وما علمك بهذا؟ قال: إني كنت لا أنام ليلة حتى أغلق أبواب المسجد، فلما كان تلك الليلة أغلقت الأ بواب كلها غير باب واحد غلبني فاستعنت عليه بعمالي ومن يحضرني كلهم، فعالجته فغلبنا فلم نستطع أن نحركه حتى لكأنما نزاول به جبلا ً، فدعوت إليه النجاجرة فنظروا إليه فقالوا: إن هذا الباب سقط عليه النجاف والبنيان ولا نستطيع أن نحركه حتى نصبح فننظر من أين أتى، قال فرجعت وتركت البابين مفتوحين، فلما أصبحت غدوت عليهما فإذا الحجر الذي في زاوية المسجد مثقوب وإذا فيه أثر مربط الدابة، فقلت لأصحابي: ما حـ ُبس هذا الباب الليلة إلا على نبي وقد صلى الليلة في مسجدنا.. وذكر الحديث"[ابن كثير24/3]، وحسبنا من هذه القصة الواردة على لسان أحد علماء النصارى، أمر مصادقته لما ورد عند المسلمين من أمر ذهابه عليه السلام لبيت المقدس، والخلوص من ثم للتصديق بكل ما ورد عنه في هذا الشأن ومن أمر ختم النبوة به، والإيمان والاعتقاد بصدق رسالته.

جميعاً بلا استثناء، لإمامهم وإمام البشرية جمعاء النبي محمد صلوات الله عليه وسلامه، كما أنها الإ شارة الواضحة إلى استحقاقه وأمته دون غيرهم إرث بيت المقدس، ليعلم أهل الأرض جميعا أن شريعته ناسخة لجميع الشرائع، وأن كتابه مهيمن على جميع الكتب، وأن إمامته إمامة لجميع أمم النبيين، وأن رسالته هي الرسالة العامة لسائر الخلق أجمعين، ويشير ابن كثير 2/3 إلى هذا المعنى فيذكر أن الأنبياء "جـ ُمعوا له هناك كلهم فأمهم صلوات الله عليه، في محلتهم ودارهم فدل على أنه الإمام الأعظم والرئيس المقدم، ويقول أبو عبد الله المنهاجي: يسر الله الأنبياء كلهم لرسول الله r فصلى بهم في بيت المقدس".. وفيه – من غير ما ذكر – الدلالة على ملكية النبي وأمته لهذا المكان إلى يوم القيامة، إذ الإمامة إنما تكون في الأصل لصاحب المكان، وفي الحديث: (لا يؤمن الرجلُ الرجلَ في سلطانه إلا بإذنه).

ولعل فيما سبق ما تؤيده عبارة ابن القيم التي ذكر فيها ما نصه: "وقد قال الله في التوراة حين ذكر إسماعيل جد العرب: (إنه يضع فسطاطه في وسط بلاد أخوته)، وهم بني إسرائيل، وهذه بشارة بنبوة ابنه محمد الذي طلب فسطاطه وم ُلك َ أمته في وسط بلاد بني إسرائيل وهي الشام التي هي مظهر ملكه"1.

ومن النصوص الصريحة الدالة علي تحوّل الإمامة وإرث الملك والنبوة إلي محمد وأمته، ما جاء في إنجيل يوحنا 4: 19 - 21من أن امرأة من أولاد يعقوب قالت للمسيح عليه السلام: "يا سيد أرى أنك نبي. آباؤنا سجدوا في هذا الجبل وأنتم تقولون: إن في أورشليم الموضع الذي ينبغي أن يسجد فيه. قال لها يسوع: يا امرأة صدقيني إنه تأتي ساعة لا في هذا الجبل ولا في أورشليم تسجدون للآب"، فـ "هذا من المسيح عليه السلام إشارة إلى تغيير بيت المقدس بالكعبة الحرام، فإنها ناسخة لما تقدمها من جهات الصلاة، وصار السجود لله تعالى فيها لا في أورشليم ولا في غيره" كذا ذكره القرافي في الأجوبة الفاخرة ص205.. وما جاء قبل ذلك في سفر التثنية32: 19-21 من التوراة السامرية بعد أن ذكر موسى من مساوئ بني إسرائيل ما تقشعر منه الأبدان وتشيب لهوله الولدان وتزول من مكره الجبال: "فينظر الله ويرفض من كيد خواصه وخصيصاته. ويقول: أحجب رضواني عنهم لأنظر ما آخرتهم، إذ جيل متقلب هم، بنون ليس أمين فيهم. هم أسخطوني بغير قادر، أكادوني بهبائهم، وأنا أغيرهم بغير قوم2، بشعب ساقط أكيدهم"، إذ المراد بالشعب الساقط هنا – حسب نظرة اليهود إليهم وعلى ما أفادته النسخة المترجمة عن العبرانية – الأميين الذين قال الله في شأنهم وفي شأن نبيهم: (هو الذي بعث في الأميين رسولا ً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب و الحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين.. الجمعة/2)، على أن أمية ذلك الشعب لا تتنافى بحال – على خلاف ما توحي به عبارة الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها – مع عظمته، وذلك طبقا لما جاء في كتب القوم، من نحو ما ورد في سفر التكوين17: 20حيث قال الله لخليله إبراهيم: "وفي إسماعيل استجيب منك، هو ذا باركته، وأثمره، وأكثره جداً جداً، اثنا عشر رئيساً يولد وسأجعله شعباً عظيماً"، ونظيره في الإصحاح21: 18من نفس السفر من التوراة العبرانية.

قال الإمام القاضي أبو البقاء صالح بن الحسين الهاشمي في كتابه (تخجيل من حرف التوراة والإ نجيل) 2/ 652 بعد أن ساق هذه البشارة:"قد علم الموافق والمخالف، والمؤالف والمفارق أنه لم يكن في ذرية إسماعيل من ظهرت بركته ونمت أمته وأعطي الشعب الجليل سوى محمد r، فقد ملئوا الأ رض برحابها، وطبقوا من شرق الأرض إلى غربها ودوخوا الآفاق وأربوا في العدد على أولاد إسحاق، وهم والحمد لله لا يزدادون على مر الأيام إلا نماء وكثرة، وهذا بالغ في شرف إسماعيل، إذ فخر الولد يكسب الوالد فخراً ويرفعه دنيا وأخرى، وناهيك بمن يصفه الله بالعظمة والبركة واليمن والجلالة، وبأقل من هذه الوعود يثبت الفضل على سائر المخلوقات، إذ اليسير من الله عظيم والعظيم منه لا شيء أعظم منه".

والذي تجدر الإشارة إليه، أن دين النبي محمد r قد انتشر في مشارق الأرض ومغاربها، وظهرت أمته

---

(1) هداية الحيارى ص 181.
(2) ناهيك عن عبارات المحو والإزالة والإبادة والتبديد والإزواء والاستئصال والاستبدال والتحول إلى رأس الزاوية، والحجر الذي كان يرفضه البناءون.. إلى غير ذلك مما ورد ذكره في الكتاب المقدس في حق بني إسرائيل والقوم عنه في كبر وعناد، وسيأتي الاستشهاد ببعض هذه العبارات بما يسمح به المقام.

على اليهود والنصارى في أفضل الأرض وأجلها عندهم كأرض الشام ومصر والجزيرة العربية وغيرها، وحفظه الله على مر الدهور والأزمان من التغيير والتبديل، ومن كذب به استحق من الله اللعنة و الغضب كما صرحت بذلك الآيات.. وأنه ما إن تحمل هذا الشعب العظيم وذاك النسل المبارك من صلب إبراهيم عليه السلام، أمانة الدين وعبء المسئولية إلا وانساح في كل مكان من أرض الله، يدك معاقل الشرك ويقوض برسالة التوحيد أركان الوثنية التي فشل أتباع الرسالات قبلها في القضاء عليها، وانطلق هذا الجيل الفريد لا يبالي ولا يتوانى عن تنفيذ ما ندب إليه حتى تم على يديه إطفاء نار فارس وإجلاء الرومان عن المنطقة بأسرها، وحقق وعد الله في أقل من عشر سنين وأقام شريعته في المنطقة وما وليها في أقل من قرن من الزمان.

****

الحقيقة الثامنة
التواصل الإيماني هو الأصل والأساس
****

إن الأصل في عمارة الكون الذي لا يعبأ بنو إسرائيل به كثيراً – لا سلفاً ولا خلفاً – هو التواصل الإيماني، وما التواصل النسلي إلا تبعاً لهذا الأصل وفرعاً عن ذاك الأساس، وما كان تبرأ إبراهيم من قومه بل ومن أبيه آزر عندما تبين له أنه عدو لله، إلا دليلا ً على تأكيد وترسيخ هذا الأصل وإعماله – فيما بعد – في بنيه وعقبه.. وهو ما كان.
فما أعلنه إبراهيم حين اصطفاه ربه – من قولة: (أسلمت لرب العالمين) – جعلها كلمة باقية في

عقبه، وفي هذا يقول جل شأنه: (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين. إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين. ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون.. البقرة/ 130، 133)، يقول الحافظ ابن كثير في مرجع الضمير في (بها): "وصى بهذه الملة وهو الإسلام لله، أو يعود الضمير على الكلمة، وهي قوله: (أسلمت لرب العالمين) لحرصهم عليها ومحبتهم لها حافظوا عليها إلى حين الوفاة ووصوا أبناءهم بها من بعدهم، كقوله تعالى: (وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون. إلا الذي فطرني فإنه سيهدين. وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون.. الزخرف)"، يعني إليها[1].. ويلاحظ في آيات سورة الزخرف احتمال أن تكون الكلمة: (إنني براء مما تعبدون)، وهي لا تخرج في مضمونها عما سبق، فهي على أي حال: (عبادة الله وحده لا شريك له).. كما يلاحظ في آية البقرة كيف أن يعقوب المسمى بـ (إسرائيل) ما رغب مثقال ذرة عن ملة أبيه، وما اختلفت وصيته لبنيه قيد أنملة عن وصية جده إبراهيم، وعليه فما على بنيه – والحال كذلك – إلا تحمل تبعة مخالفتها.

وهذه المقدمة تجعلنا نؤكد أن لا صحة لما فهمه كتبة العهد القديم من نصوص تشير إلى أن وعد إبراهيم بأرض فلسطين، إنما كان قاصراً على أولاده وأحفاده من نسل إسحاق، هكذا دون قيد بزمن أو التزام بوصية أو شرط بإنفاذ عهد، كما تجعلنا نؤكد أن لا حجة فيما استدلوا به من نحو ما جاء في سفر الخروج6: 2-4 ".. ثم كلم الله موسى وقال أنا الرب. وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب بأني الإله القادر على كل شيء.. وأيضا أقمت معهم عهدي أن أعطيهم أرض كنعان أرض غربتهم التي تغربوا فيها"، ونظيره ما جاء في سفر التكوين35: 5.. لأن هذا – على ما سبق أن ذكرنا بالدليل – ليس لهم الآن، وإنما كان لهم فيما مضى مشروطاً بحفاظهم على الفرائض والأحكام والمواثيق، وإبان المدة المقررة والمقدرة لهم أزلاً.

ويدل على ذلك من غير ما ذكرنا، ما أفادته النصوص من أن ما وعدوا به في سفري الخروج والتكوين وغيرهما، قد تحقق لآبائهم وأسلافهم على يد يوشع وداود وسليمان عليهم السلام، وقل مثل هذا فيما وعدوا به قبل خروجهم من مصر مع موسى على ما أفادته نصوص كتبهم، ففي سفر الخروج6: 6 وما بعدها في خطاب الله لموسى: "قل لبني إسرائيل أنا الرب، وأنا أخرجكم من تحت أثقال المصريين وأنقذكم من عبوديتهم وأخلصكم بذراع ممدودة وبأحكام عظيمة. وأتخذكم لي شعباً وأكون لكم إلهاً.. وأدخلكم إلى الأرض التي رفعت يدي في أن أعطيها لإبراهيم وإسحاق ويعقوب، وأعطيكم إياها ميراثاً، أنا الرب. فكلم موسى هكذا بني إسرائيل، ولكن لم يسمعوا لموسى من صغر النفس ومن العبودية القاسية".. ونصه في السامرية: "قل لبني إسرائيل أنا الله سأخرجكم من أوقار المصريين وأخلصكم من خدمتهم، وأفكّكم بقدرة بسيطة وبأحكام كبار. واتخذكم لي شعباً وأكون لكم ولياً.. وأحضركم إلى الأرض التي أقسمت بقدرتي لإعطائها لإبراهيم وإسحاق ويعقوب وأعطيها لكم وراثة أنا الله. وخاطب موسى كذلك بني إسرائيل، فلم يسمعوا من موسى من ضيق الصدر ومن الخدمة الشاقة، وقالوا لموسى: انقطع الآن عنا لنخدم المصريين، إذ خير لنا خدمة المصريين من موتنا في البرية".

كما يدل عليه أن ذلك كائن لنسل إسماعيل الأطهار، كما هو كائن لنسل إسرائيل قبل مبعث نبي المسلمين محمد عليه السلام، ففي سفر التكوين17: 20 لما قال الله لإبراهيم: "وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه هاأنذا أباركه وأثمره وأكثره كثيرا جداً اثني عشر رئيساً[2] يلد وأجعله أمةً كبيرة"، كان مراده من هذا، التبشير بمحمد r.. فإنه الذي عظمه الله جداً جداً باتفاق الأمم، إذ لم يظهر من قِبل إسماعيل عليه السلام إلا النبي محمد صلوات الله عليه، وهو الذي صيره الله إلى أمة كثيرة حتى أربت في كثرتها على نسل إسحاق، ولا ينكر ذلك إلا جاحد مكابر، ولاسيما مع قول الله في سفر إشعياء 54: 1، 3، 6- 8 وبنحوه في رسالة بولس لأهل غلاطية4- 27: "لأن بني المستوحشة[3] أكثر

([1])ابن كثير 1/ 185وينظر 4/ 126.

(2) هم – كأسباط يعقوب الاثني عشر – آباء القبائل العربية وقد وُلد لكل واحد منهم أمة من الناس، وكان أشهرهم قيدار الذي من نسله انحدرت قريش التي منها النبي r، وفي تفاصيل وشرح ما جاء في خبره، وفي هذه البشارة وكذا ما جاء على شاكلتها يُنظر: (إظهار الحق) 1138/4-1136، 1164-1155 و(محمد نبي الإسلام في التوراة والإنجيل والقرآن)، ص3، 11، 16وما ولي هذه الصفحات.

(3) يعني أبناء السيدة هاجر وهم أولاد إسماعيل، إذ أسكنت في الصحراء ببلاد العرب وكان أولادها –على ما تنبأت به آيات التوراة – كثيرين وورثوا ا

من بني ذات البعل.. ويرث نسلك أمماً ويعمّر مدناً خربة.. لأنه كامرأة مهجورة ومحزونة الروح دعاك الرب.. لحيظةً تركتك وبمراحم عظيمة سأجمعكِ . بفيضان الغضب حجبت ُ وجهي عنك ِ لحظة، وبإحسان ٍ أبدي أرحمكِ، قال: وليكِ الرب".
وحين قالت سارة لإبراهيم: "اطرد هذه الجارية وابنها، لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني إسحاق"، قال الله لإبراهيم: "بإسحاق يدعى لك نسل، وابن الجارية أيضاً سأجعله أمة لأنه نسلكَ" سفر التكوين21: 10، 12، 13وينظر رسالة بولس لأهل غلاطية 4: 30- 31.. ولما رأت هاجر أن تسكن بعيداً عن سارة ظناً منها أن الله قد خص درتها وابنها إسحاق بالبركة، ناداها ملاك الله بقوله: "مالك يا هاجر، لا تخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو. قومي احملي الغلام وشدي يدك به لأني سأجعله أمة عظيمة. وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء، فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام. وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية وكان ينمو رامي قوس. وسكن في برية فاران، وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر" سفر التكوين21: 17- 21.
فهذه النصوص وما جاء على شاكلتها، تعني ألا تعارض بين ما أفادته نصوص كتبهم، من جعل الوعد في أولاد إسرائيل من نسل إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام، وجعله – بعد أن تنتهي مدة البركة الممنوحة من الله لبني إسحاق – في أتباع محمد r الذي هو من نسل إسماعيل بن إبراهيم عليهما الس لام، ولاسيما أن ليس في العهد القديم ولا الجديد – رغم ما اعتورهما من تحريف – ما ينفى هذا الا نتقال، ولا ما يفيد أن هذا الوعد سيظل إلى الأبد حكراً على بني إسرائيل، بل إن العكس – على ما رأينا في النصوص السابقة – هو الصحيح، وما جاء من نصوص العهدين ما يفيد خلاف ذلك، فهو مما حـ ُرف، ويـ َرد ُ عليه ما ذكرنا.
يؤيد ما أوردناه هنا من نصوص العهدين ويؤكده، أنه لم يأت من نسل إسماعيل بن إبراهيم نبي، ولن يأت سوى محمد عليه وعليهما الصلاة والسلام، كما يؤيده ويؤكده أن كلمة (الأبد) ما جاءت في التوراة والإنجيل إلا في حقه وفى حق هذه الأمة المنتسبة إليه، ومما ورد من ذلك ما جاء في سفر إشعياء 26 :2-4 "افتحوا الأبواب لتَدخلَ الأمة البارة الحافظة الأمانة. ذو الرأي الممكن.. توكلوا على الرب إلى الأبد"، وقد ثبت عدم وجود هذه الصفات في أمة يعقوب عليه السلام.
وبنحوه في تأكيد ما سبق ما جاء في إنجيل يوحنا على لسان يسوع14: 16 "وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزياً آخر(أي معلماً) ليمكث معكم إلى الأبد"، ولم يبعث بعد عيسى عليه السلام نبي عدا محمد r، وفي المزمور45: 2، 6، 16، 17، "باركك الله إلى الأبد.. كرسيُك يا الله إلى دهر الدهور.. عوضاً عن آبائك يكون بـ َنوك، تقيمهم رؤساء في كل الأرض. اذكر اسمك في كل دور فدور، من أجل ذلك تحمدك الشعوب إلى الدهر والأبد"1، ناهيك عما جاء في العهدين القديم والجديد من صفته وصفة أمته.
ومما يدل على المثلية في منح الوعد من الله لأبناء إسماعيل، وأن ذلك كائن على أساس من الإيمان وتوحيد الله على غرار ما كان منه مع أبناء إسرائيل، أن إسرائيل حين وصى بنيه بعبادة الله وحده، لم يطمئنه إلا إعلامهم إياه أنهم سيستمرون على العهد في عبادة إلهه وإله آبائه من الأنبياء، وفي ذلك يقول سبحانه: (ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون. أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون.. البقرة/ 133)، فهاتان الآيتان تقرران حقيقة أن يعقوب (إسرائيل)، وصى بنيه بما وصي به إبراهيم، وصاهم بأن يعبدوا إلها واحداً هو إله إبراهيم (جده) وإله إسحاق (أبيه) وإله إسماعيل (عمه).
فهي إذن دعوة مشتركة وملة واحدة تعاهد عليها الأبناء، وجمعت بين جميع آبائهم من الأنبياء من ذرية إبراهيم وعلى رأسهم إسرائيل بن إسحاق وإسماعيل الذي هو كإسحاق تماماً لكونهما من ظهر إبراهيم وصلبه، وهو في معنى ما جاء في قول الرب لإبراهيم عقب ولادة هاجر لإسماعيل تكوين 17: 5، 7 "أجعلك أباً لجمهور الأمم.. وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم،

لأمم السابقة، والمستوحش هو البعيد عن أهله، وهاجر – كما هو معلوم – كانت بعيدة عن أهلها في مصر وبعيدة كذلك عن زوجها إبراهيم الذي كان يقطن في بلاد الشام.
(1) ينظر في شرحه إظهار الحق 4/ 1143، 1154.

عهداً أبدياً لأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك"، وقوله بعد ُ عن سارة تكوين 17 – 16: "وأباركها وأعطيك أيضاً منها ابناً، أباركها فتكون أمماً، وملوك ُ شعوب ٍ منها يكونون"، ويلاحظ هنا كلمة (أيضاً) الواردة في الأخير من هذين النصين، وما تفيده من المثلية في منح البركة – المبشر بها إبراهيم – لإسماعيل أولا ً، يعني من قبل أن تكون في إسحاق على الرغم من أسبقيته الزمنية.

وإذا كان الأمر كذلك، فلا غرو ولا عجب عند إخلال بني إسرائيل بوصية أبيهم يعقوب وجدهم إبراهيم – المخاطب بجعل الأمر في نسله دون تحديد ولا تمييز – أن ينتقل الأمر إلى إخوتهم وبني عمومتهم من نسل إسماعيل ليتم التواصل الإيماني في هذه الشجرة المباركة، وإلا عُد عدم انتقاله وتحوله عن بنيهم مع إصرارهم على مغايظة الرب ومواصلتهم فعل المعصية والاعتداء على الذين يأمرون بالقسط من الناس، محاباة يتنزه عنها الرب الذي أمر الجميع دون ما مفاصلة، بألا يعبدوا سواه وبأن يِ َمتثلوا أوامره وينتهوا عن مناهيه.

كما يدل على هذه المثلية في تحقيق موعوده سبحانه لنبي إسماعيل على غرار ما كان من قبل لبني إسرائيل، ما ورد في سفر التثنية 18: 19-18 في مخاطبة الرب لموسى: "أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به. ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لك لامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه" أي أحاسبه وأقتص ُ منه، ونصه في التوراة السامرية: "نبياً أقمت لهم من جملة إخوتهم مثلك1، وجعلت خطابي بفيه فيخاطبهم بكل ما أوصيه. ويكون الرجل الذي لا يسمع من خطابه الذي يخاطب باسمي أنا أطالبه"، والنص الأخير عينه تكرر في السامرية دون العبرية، وجاء تحديداً في سفر الخروج 20: 21، وشبيه به ما ورد في العهد الجديد في أعمال الرسل3: 22-23، 7: 37 وفيه: "فإن موسى قال للآباء إن نبياً مثلي سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم، له تسمعون في كل ما يكلمكم به. ويكون أن كل نفس لا تسمع لذلك النبي تباد من الشعب"، "هذا هو موسى الذي قال لبني إسرائيل: نبياً مثلي سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم، له تسعون"2.

فكل هذه النصوص، تشير إلى أن الموعود به الذي هو مثله في الجلالة والرسالة العظيمة والذي جعل الله أمره مستأنفاً هو النبي محمد r، و"ليس – على حد ما ذكر القرافي في كتابه (الأجوبة الفاخرة) ص200 – هارون عليه السلام لقول التوراة: إنه مات قبل موسى عليه السلام.. ولا يوشع بن نون عليه السلام، لأنه أقيم نبياً قبل هذا الخطاب، ولأنهما صلوات الله عليهما من بني إسرائيل، وموسى قـ ـال: (من إخوتهم) ولم يقل من أنفسهم، فتعين أن يكون من ولد إسماعيل أخي إسحاق، فإنهما أخوان وأولاد أحدهما أخوة الآخرين، ولم يخرج من ولد إسماعيل إلا محمد r فيكون هو الموعود به، وأما عيسى عليه السلام فعند النصارى رب، وعند اليهود كآحاد الناس وليس الموعود به إجماعاً"أهـ .

وقد فسر عيسي عليه السلام عبارة (أنا أطالبه) الواردة في النصوص السابقة، بالعذاب الشديد لمن لم يطع ويسمع ويؤمن بهذا النبي المنتظر المبشر به وهو أحمد r، وكذا لمن لا يقر ويؤمن بتحول موعود الله في الملك والنبوة له ولأمته من بعده، يشهد لهذا ما جاء في بعض تراجم ذات النص: "أنا أنتقم منه"، كما يشهد له ما أورده لوقا12: 16-21على لسان المسيح عليه السلام ونصه: "وضرب لهم مثلا قائلا ً: إنسان غني أخصبت كورته. ففكر في نفسه قائلا ً: ماذا أعمل؟، لأنه ليس لي موضع أجمع

---

(1) وإنما كان الخطاب في نسختي التوراة لموسى، لأن شريعته هي التي أتت بالفرائض والأحكام، وعليه فالتشبيه بموسى لأن محمداً r أتى بشريعة كشريعته، خلافاً ليشوع بن نون الذي لم تكن له شريعة وخلافاً لعيسى الذي جاء فقط ليكمل وليحد من غلواء المادية التي طغت في نفوس نبي إسرائيل، كما ورد ذلك على لسانه في إنجيل متى5: 17(لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء.. بل لأكمل).

ومصداق ذلك في القرآن من غير آية الصف/6، ما جاء في قوله تعالى على لسان الجن حين سمعوا القرآن وأرادوا أن ينذروا به قومهم: (يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم.. الأحقاف/30)، وفي ذلك ما فيه من التأكيد على أن شريعة المسيح هي بعينها شريعة التوراة.. ينظر في شرح ما خوطب به موسى، إظهار الحق 4/1116-1132.

(2) بله أنه وقبيل هذا النص مباشرة، جئ بما يفيد أن البشارة هنا خاصة بيسوع المسيح، وهذا خطأ بين ومغالطة واضحة، ففي عبارة: (من جملة إخوتهم) أو(من وسط إخوتهم)، ما يقطع الشك باليقين للأسباب التالية:

أولا ً: النصوص التي سبق ذكرها والتي تعضد فكرة أن المبشر به هو محمد r ولا يمكن بحال أن تنطبق أو تنصرف أو يصلح حملها في أية لغة من لغات العالم إلا على النبي محمد r، ثانياً: كون محمد r من نسل بني إسماعيل الذين هم أخوة لبني إسرائيل بن إسحاق، ثالثاً: معرفتنا بأن عيسى إنما كان من نسل إسحاق مما يعني أنه واحد من بني إسرائيل وليس من إخوتهم، رابعاً: نصوص التوراة المصرحة بذلك والقاضية بمنع أن يكون النبي المنتظر من بني إسرائيل، أو أن تكون فيهم شريعة أخرى من بعد شريعة موسى عليه السلام، كما في سفر التثنية 34: 10من النسخة السامرية ونصها: "ولا يقوم أيضاً نبي في إسرائيل كموسى الذي ناجاه الله شفاهاً"، وقريب منه في العبرانية، خامساً: ما جاء على لسان عيسى عليه السلام من نصوص في الإنجيل تفيد ذلك كما في إنجيل يوحنا 8: 50 من قوله: "أنا لست أطلب مجدي، يوجد من يطلب ويدين"، سادساً: ما جاء على لسان الملك لما أتى هاجر وقال لها: "تلدين ابناً وتدعين اسمه إسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك. وأنه يكون إنساناً وحشياً، يده على كل واحد ويد كل واحد عليه، وأمام جميع إخوته يسكن" تكوين16: 11-12.. إلخ.

فيه أثماري؟"، فقال لنفسه: "استريحي وكلي واشربي وافرحي. فقال له الله: يا غبي هذه الليلة تطلب نفسك منك، فهذه التي أعددتها لمن تكون؟. هكذا الذي يكنز لنفسه وليس هو غنياً لله".. وهذا يعنى أن ذاك المعرض عن الله المغتر بدنياه، الذي ما عمل لأخراه ولا آمن برسل الله، هالك لا محالة ومعذب في النار1، لأنه ما تصدق ولا صلى ولكن كذب وتولى، وعليه فهو ليس أهلا للاستخلاف ولا لوراثة الأ رض والنبوة، كما يعنى التهديد الواضح والوعيد الصريح بأنه عقب الانتقام الدنيوي لهذا الذي لا يسمع لذلك النبي الآتي إلى العالم يباد، ليتأسس على أنقاض ملكه، ملك جديد يقوم على أساس من الإيمان، ويكون إلى الأبد.

وهذا ما جرى بالفعل، فما أن رُفع عيسى عليه السلام بعد أن تآمر اليهود على قتله، حتى سلط الله عليهم – بعد أن كانوا في نعمة ومنعه – من يضطهدهم ويسومهم سوء العذاب، بل وحتى بعد أن هاجر فريق منهم إلى بلاد العرب وصارت لهم فيها ديار عظيمة وحصون منيعة وزروع وثمار.

ذلك أنه ما أن ظهر الإسلام ونقضوا العهد مع رسول الله غير مبالين بتحول موعود الله عنهم لسوء صنيعهم ولجرائمهم المتلاحقة، حتى دمرها الله عليهم، وحاربهم r في عقر دارهم وأجلاهم من المدينة، ثم مهد – بغزوه الروم في مؤتة وتبوك، وبعزمه على إرسال سريته التي مات عنها وجعل على رأسها أسامة بن زيد – لاسترداد الأرض المقدسة المحببة إلى نفوسهم، تلك التي كان الله تعالى قد كتبها لهم إبان مدتهم، فكتب أصحابه – عليهم الرضوان – كتاب صلح مع بطريرك النصارى ثمة، واتفقوا جميعا على ألا يدخلها يهودي أبداً[2]، وقضى بذلك على ملكهم وأزيلت دولتهم وانمحت بركة إسرائيل في الأمم إلى الأبد، لتحل محلها بركة إسماعيل ممثلة في محمد r وصحابته وتابعيهم من أمته "إلى الدهر وإلى دهر الداهرين" على حد ما جاء في المزمور (44: 18)3، وإلى "مجيء يوم الرب. اليوم العظيم والمخوف" على حد ما جاء في سفر ملاخي4: 5.

ومما يعضد من شأن هذا التحول، ويقو ِّي من أمر استحقاق اليهود لما حل بهم، ما جاء في سفر التثنية 32: 26 من قول الرب لأولئك الذين أغاظوه بأباطيلهم وأغاروه باتخاذ العجل والأصنام وغير ذلك مما ليس إلهاً: "أبددهم إلى الزوايا وأبطل من الناس ذكرهم"، ونظيره في النسخة السامرية من نفسي السفر والإصحاح والعدد: "أزويهم أعطل من الملأ ذكرهم"، وفى سفر التثنية 28: 63-64من النسخة العبرانية:

"كما فرح الرب لكم ليحسن إليكم ويكثركم، كذلك يفرح الرب لكم ليفنيكم ويهلككم فتُستأصلون، من ا لأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها. ويبددك الرب في جميع الشعوب من أقصاء الأرض إلى أقصائها.."إلخ4.

وفيما سبق من قول موسى – عليه السلام – مما ورد ذكره في سفر التثنية 18: 18: "أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك"، مع ما أوضحناه في الحقيقة الثالثة بشأن الأبدية الحاصلة في رسالة محمد r والمبشر بها هو وأمته، ما يكشف زيف ما تزعم من يهود من أن تلك الأبدية إنما هي أمر خاص بهم وبنسل نبيهم إسرائيل على ما تفهمه عبارة سفر التكوين17: 19وفيها:

"بل سارة امرأتك تلد لك – والخطاب هنا بداهة لإبراهيم عليه السلام – ابناً وتدعو اسمه إسحاق،

---

(1) وما من شك أن هذا تحذير شديد لكل من لا يؤمن من اليهود والنصارى بمحمد صلوات الله وسلامه عليه، وفي معناه ورد في الصحيح عنه: (والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار).

([2]) فقد جاء في نص الوثيقة العمرية التي لم تزل محفوظة إلى الآن في بطريركية الروم الأرثوزكس في القدس الشريف، والتي أشهد عليها عمر قواد جيشه من خيرة الصحابة – خالد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية: "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها، ولا من صلبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار واحد منهم، ولا يسكن إيلياء معهم أحد من اليهود ...إلخ".. ينظر تاريخ الطبري 609/3 ط دار المعارف بمصر سنة 1962تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، والبداية والنهاية للحافظ ابن كثير7/ 55 وما بعدها، وخطط الشام لمحمد كرد علي 84/1.

ولا ندري ما الذي جعل المسلمين فيما بعد وبخاصة في تاريخهم المعاصر يأمنونهم، ويحيدون عما سنه عمر ويفرطون فيه ويخالفونه؟، وأين في زماننا دعاة السلفية والتمسك بالسنة والأحاديث من قول النبي فيما صح عنه: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ) ومن هذه الوثيقة العمرية؟، وما الذي قدموه لإنفاذها وقد لغوا من قاموسهم فريضة الجهاد – حتى على أهل البلاد المسلمة المحتلة – وعطلوها بإثارة الشبهات وبقصرهم الدين على مسمى العلم؟ وما هو موقفهم مما يفعله معشر يهود في مسلمي فلسطين المحتلة من قول الله تعالى: (وأخرجوهم من حيث أخرجوكم .. البقرة/191)؟.

(3) في طبعة سنة 1844، وقريب منه نص طبعة سنة 1865 لكن في المزمور 45: 17.

(4) أليس هذا واقعهم الذي جسده القرآن في قول الله تعالى بعد أن أنفذ فيهم وعيده: (وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب)، وقوله بعدها وإزاء ذلك: (وقطعناهم في الأرض أمماً.. الأعراف/168).

وأقيم عهدي أبديا لنسله من بعده"، إذ لا يتأتى بحال من الأحوال أن يكون الأمر كذلك مع وعد الله لموسى أن يقيم لهم نبياً من وسط أخوة يعقوب، كما لا يصح أبداً ولا يعقل في لغة أمة من الأمم أن يقال إن بني إسرائيل إخوة لبني إسرائيل وبني تميم أخوة لبني تميم.. بخلاف قولك: (بنو إسماعيل إخوة لبني إسرائيل) و(زيد أخو بني تميم)، و(هود أخو عاد) و(صالح أخو ثمود) أي واحد منهم، فهو أخوهم في النسب والأصل يعني من ناحية الجد، ولو قيل: (عاد أخو عاد)، و(ثمود أخو ثمود)، و (مدين أخو مدين)، لكان نقصاً وخطأً صريحاً.

وفي بيان ذلك يشير ابن القيم رحمه الله إلى أن: "أخوة بني إسرائيل إما العرب وإما الروم، فإن العرب بنو إسماعيل والروم بنو العيص، وهؤلاء إخوة بني إسرائيل، فأما الروم فلم يقم منهم نبي سوى أيوب وكان قبل موسى، فلا يجوز أن يكون هو الذي بشرت به التوراة، فلم يبق إلا العرب وهم بنو إسماعيل وهم أخوة إسرائيل"1.. ومما يعد عمدة وأساساً في حسم هذا الأمر فيما نطقت به كتبهم، ما جاء في سفر التكوين 25: 18 من أن إسماعيل وذريته "سكنوا من حويلة إلى شور التي أمام مصر حينما تجئ نحو أشور، أمام جميع إخوته نزل"، حيث جاء التعبير بالأخوة صريحاً في حق بني إسماعيل.

وقد تنبه لهذا الزيف الذي يروج له اليهود، عالمان فرنسيان هما (جاك لرومال) و(ماري لوروا) إذ يقولان – تعليقاً على نص التوراة الذي يقول "إن الرب أوحى إلى إبراهيم بالذهاب إلى فلسطين قائلاً (لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير: نهر الفرات) – : "إن هذه الآية[2] إن صحت فإن هذا الوعد، ينصب على ابن إبراهيم: (إسماعيل أبي العرب)"[3].

كما يكشف ذلك الزيف ما جاء عقيب النص السابق مباشرة ـ التكوين 17: 20وفيه عن إسماعيل: "وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه، هاأنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرا جداً، اثني عشر رئيسا بلد وأجعله أمة كبيرة"، وذلك صريح في انتقال موعود الله في الملك والنبوة إلى بني إسماعيل على ما سبق ذكره، لأن عبارة (كثيرة جداً) تعني في اللغة العبرانية: (بماد ماد)، كما تعني عبارة (شعبا عظيماً): (لجوي جدول) على ما أجمع عليه علماء اليهود السامريين والعبرانيين4، وهما تدلان بحساب الجمل على أسم النبي محمد r الآتي من نسل إسماعيل، إذ مجموع كل منهما اثنان وتسعون وهو بعينه مجموع حساب الحروف في (محمد) تماماً5.

ولا غرو أن يكون مسماه صلوات الله وسلامه عليه في الإنجيل والكتب السالفة (أحمد)، لأنه كان كذلك "قبل أن يكون (محمداً) كما وقع في الوجود.. وذلك أنه حمد ربه قبل أن يحمده الناس، وكذلك في الآخرة يحمد ربه فيشفعه فيحمده الناس"[6]، وتفسيره أنه r أحمد الناس لربه، فهو من ثم أحق الناس وأولاهم بأن يحمد لما له من كثير الخصال التي يستحق أن يحمد عليها في الدنيا والآخرة فصار من أجل هذا محمداً.. فالاسمان واقعان على المفعول ويفيدان المبالغة بيد أنها في محمد للكثرة والكمية، وفي أحمد في الصفة والكيفية وكل في موضعه أبلغ في مدحه عليه السلام وأكمل في المعنى.

يضاف لما سبق من إيماءات نصوص التوراة، أن دلالة نص إشعياء9: 7-9 "لأنه يولد لنا ولد ونعطي ابناً، وتكون الرياسة على كتفه، ويدعى اسمه عجيباً مشيراً إلهاً قديراً أباً أبدياً رئيس السلام. لنمو رياسته وللسلام، لا نهاية على كرسيٍ داود وعلى مملكته ليثبتها ويعضدها بالحق والبر من الآن إلى الأبد، غيرة رب الجنود تصنع هذا".. أقول: إن دلالة هذا النص على محمد بن عبد الله r، أظهر وألزم من دلالته على غيره7، فإنه الذي رئاسته على عاتقه وبين منكبيه من جهتين:

---

(1) هداية الحيارى ص180، 181.

([2]) وهي في التوراة السامرية بسفر التكوين 15: 18، وكذا ما جاء على شاكتها كالتثنية 1: 7 في النسخة العبرانية، والتثنية 11: 25 بهما.

([3]) ينظر موسوعة بناء منهج إسلامي متكامل أ/ أنور الجندي 5/ 228.

(4) ينظر التوراة السامرية تحقيق د. السقا ص 406، 407.

(5) وقد كانوا يحسبون على هذه الكلمات (أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت)، الهمزة بواحد والباء باثنين إلى حرف الياء الذي يساوي عشرة ثم الكاف التي بعشرين وهكذا إلى القاف التي هي بمائة ثم الراء بمائتين والشين بثلاثمائة والتاء التي بأربعمائة وعندها تنتهي الحروف.

([6]) كذا ذكره ابن حجر في الفتح 641/6 عن القاضي عياض.

(7) إذ لا حجة لمن قال بأن النصوص جاءت مصرحة بـ (المسيا) التي تعني عيسى، لأن من عادة الكهنة في بني إسرائيل مسح الملك والعلماء والأنبياء بدهن أو بزيت مخصوص، ويطلقون على الممسوح: (مسيا) الذي تفسيره (المسيح)، دلالة على أن الله قد اختاره واصطفاه.. ولما كان لقب (مسيا) أو (مسيح الله) لقباً معظماً في بني إسرائيل يتفاخر بحمله عظماؤهم، ولما كانوا ينتظرون نبياً يريدون أن يفهموا الناس أنه سيكون من جنسهم، قالوا ننتظر نبياً، ولقبوه بلقب (المسيا) أي (المسيح)، لكن نبوءات الأسفار الخمسة السامرية والعبرانية المتفق عليها من قِبل اليهود، وكذلك الأناجيل كلها

من جهة أن خاتم النبوة على نغض كتفيه وهو من أعلام النبوة التي أخبرت به الأنبياء وشهده لفيف من كبراء الأحبار والرهبان ممن عاصروه.
ومن جهة أنه بعث بالسيف الذي يتقلد به على عاتقه بين يدي الساعة، وهذا يشير إليه قوله: "أبا أبديا رئيس السلام. لنمو رياسته"، يعنى لكونه المؤيد المنصور، رئيس السلامة1، فان دينه الإسلام ومن اتبعه سلم من خزي الدنيا ومن عذاب الآخرة ومن استيلاء عدوه عليه، ثم إنه – على ما تقرر – الذي سلطانه هو السلطان الكامل الذي ليس له فناء إلى آخر الدهور2.
ولا يقدح في ذلك كون إسماعيل ابناً لهاجر المقصاة3، لأن الكل في النهاية أولاد لإبراهيم الذي هو أب لجميعهم بنص كتبهم، ففي خطابه لإبراهيم في سفر التكوين 17: 5 يقول الرب: "أجعلك أباً لجمهور من الأمم".
كما لا مجال للتعجب الذي ورد في عديد من نصوص كتبهم كالمزمور118: 22، 23وإنجيل متى ومرقس ولوقا وأعمال الرسل بالإصحاحات 21- 12- 20- 4على الترتيب، من أن الحجر الذي رفضه البناءون قد صار رأساً للزاوية من قِبل الرب..4 لأن ذلك أمر معلوم من قبل، فإبراهيم الذي تبرأ من أبيه وقومه لما تبين له أنهم أعداء لله – كما جاء في القرآن – أطلعه ربه بأمر أولئك البناءين الفجرة من بنيه الذين رغبوا عن ملته وارتدوا، وأخبره "أنه سيكون من ذريته ظالمون، وأنه لا ينالهم عهد الله ولا يكونون أئمة"5، فقال سبحانه له: (لا ينال عهدي الظالمين.. البقرة/124)، فكان من الطبيعي لشيخ الأنبياء أن يمهد بوحي من ربه للبديل ولذلك الحجر الذي سيصير يوماً ما رأساً للزاوية، وأن يتبرأ من أولئك الرافضين للحجر لكونهم الذين فعلوا في أنفسهم – بظلمهم وبتخليهم عن ملته – ما استوجب ذلك الاستبدال من قِبَل الرب.
وفي تقرير هذا المعنى ورد في رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية 9: 6- 9 ما نصه: "ليس جميع الذين من إسرائيل هم إسرائيليون. ولا لأنهم من نسل إبراهيم هم جميعاً أولاد، بل بإسحاق يـ ُدعى لك نسل. أي ليس أولاد الجسد هم أولاد الله، بل أولاد الموعد يحسبون نسلا ً. لأن كلمة الموعد هي هذه".. وجاء في رسالة يعقوب2: 22 - 24 في كلام عن إبراهيم عليه السلام: "فنرى أن الإيمان عمل مع أعماله، وبالأعمال أكمـ َل الإيمان، وتم الكتاب القائل فآمن إبراهيم بالله فحـ ُسب له بـ ِرّاً، ود ُعي خليل الله.. ترون إذاً أنه بالأعمال يتبرّر الإنسان – يعني يصبح باراً ومطيعاً لله – لا بالإيمان وحده".
وهذا من دون شك يعني: أن الأبوة المقصودة في خطاب الله لإبراهيم: "أجعلك أباً لجمهور من الأمم" ، تكوين 17: 5 وكذا البنوة المرادة من قول إبراهيم عليه السلام: (ومن ذريتي.. البقرة/124)، ليست هي مجرد أبوة أو بنوة نسب، بل هي قبل ذلك أبوة وبنوة إيمانية.. مما يعني أن أبناء إبراهيم حقاً هم الذين يتبعون ملته، وهذا ما قرره القرآن في قوله عز من قائل: (إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين.. آل عمران/ 68).
ولقد تجسد الولاء والتوادد الإيماني مع الولاء والتوادد النسلي في محمد الذي ينتهي نسبه كإسرائيل

–على نحو ما رأينا – تدل على أن المبشر به محمد r، ومن ثم فهي التي توضح حقيقة المسيا أو المسيح المنتظر عند بني إسرائيل، ولا ولن يكون بحسب لغتهم ولسانهم ونبوآتهم وحساباتهم وصفات كتبهم سوى محمد r.

وممن اعترفوا بذلك من العبرانيين بعد أن أدركوا حقيقته وأسلموا: (شموئيل بن يهوذا بن يعقوب) مؤلف كتاب (بذل المجهود في إفحام اليهود)، ومن السامريين – غير أنه لم يسلم – (أبو الفتح بن أبي إسحاق السامري الدنفي) مؤلف كتاب (التاريخ مما تقدم عن الآباء) [ينظر تحقيق التوراة السامرية د/السقا ص19، 408-412].. كما يدعم ما ذكرنا، ما جاء صراحة في مخطوطات عثر عليا مؤخراً في حفرة داخل أواني فخارية بجوار البحر الميت وقال عنها رئيس كنيسة القديسيين بواشنطن القس (أ. باول ديفز) وكذا الدكتور (د. ف. البرايت) أنها أعظم الاكتشافات أهمية منذ قرون، وأنها قد تغير الفهم التقليدي للإنجيل لاعترافها بـ "أن عيسى كان مسيا المسيحيين وإن هناك مسيا آخر"، فإنه لم يأت بعد عيسى سوى نبي الله محمد.

(1) ولا يشك أحد في أنه r بتشريعاته قد رسخ مفهوم السلام في نفوس المسلمين منذ أربعة عشر قرناً من الزمان، بل إن دينه نفسه (الإسلام)، مشتق من نفس الاسم الذي اشتق منه السلام، وتحية المسلمين التي جاء بها وأمرهم بإفشائها على من يعرفون ومن لا يعرفون هي السلام، وقد علم نبي السـ لام أتباعه أن يختموا صلواتهم ليل نهار بالسلام، كيما يشيعونه في جنبات الحياة ويدعون إليه كل من عن أيمانهم وعن شمائلهم وفي كل مكان شرقاً وغرباً.

(2) ينظر هداية الحيارى لابن القيم ص 305، 306.

(3) ولا لما يزعمونه من أن إسماعيل ابن الجارية وإسحاق ابن الحرة، لأن إسرائيل كما ذكرت التوراة بعد أن تزوج ابنتي خالته (راحيل) و(لأة) تزوج جاريتيهما (بلهة) و(زلفة) وقد ولدت الجاريتان أربعة من بني إسرائيل وعليه فلا فرق، وبخاصة مع ما جاء في سفر الملوك الأول11: 3 نبأ زواج سليمان بسبعمائة من النساء السيدات وبثلاثمائة من السراري.

(4) ووجه الغرابة من وجهة نظرهم أن يرسل الرب رسولا ً من غير الإسرائيليين يعنى من بني إسماعيل بن إبراهيم الذي رفضته هو وأمه زوجة أبيه سارة.

(5) تفسير ابن كثير1/167.

تماماً إلى إبراهيم عليهما وعليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم. فما وجه الغرابة إذاً وقد تحقق ذلك وجاء وفق ما جعله الله سنة في أنبيائه وأوليائه، من أن مدار الأهلية مبني على القرابة الدينية وهي إنما تنقطع بالكفر والتفريط فيما أوجبه الله وفرضه على عباده، على نحو ما جاء في قوله عز من قائل:

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون. قل إن كان آباءكم وأبناءكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين.. التوبة/ 113، 114)، وقوله: (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم. وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه.. التوبة/ 113، 114)، وقوله: (يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح) رداً على قول نوح عليه السلام: (رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين..هود/ 46، 45)؟؟.. وفي هذا المعنى يقول جل ذكره بعد أن ذكر من الأنبياء من ذرية إبراهيم – ونوح من قبله – من ذكر من أنبياء بني إسرائيل: (ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون.. الأنعام: 88)، وإنما كان الأمر كذلك لبيان أن ليس في الأمر مجاملة البتة ولا محاباة، وتقريراً لمبدأ التوحيد الذي على أساسه يكون التمكين للأنبياء وأتباعهم، و"تفظيعاً لأمر الشرك وأنه لا يغتفر لأ حد ولو بلغ من فضائل الأعمال مبلغاً عظيماً مثل هؤلاء المعدودين المنوه بهم"، على ما جاء في تفسير التحرير – 7/ 350 مجلد4 – وغيره، فكيف بمن عداهم؟؟.

****

الحقيقة التاسعة

أحقية ذرية إسماعيل في أرض فلسطين كما ترويه حقائق التاريخ والمنظمات الدولية وأدلة العقل والنقل

****

المعهود لدى إسرائيل أنها لا تقيم وزناً للأعراف ولا للمواثيق الدولية، ولا للقيم ولا للمبادئ الإنسانية، ويشهد التاريخ كم هو حجم القوانين التي صدرت بحقها على امتداد أكثر من خمسين عاماً دون أن تلقي لها بالا ً، ونذكر من جملة تلك القرارات التي تدين وتبطل جميع الأعمال التي تقوم بها إسرائيل بما في ذلك أعمال القتل والإبادة والتدمير ومصادرة الأراضي والأملاك التي من شأنها أن تؤدي إلى تغيير الوضع القانوني للقدس بالقوة:

قرار الأمم المتحدة رقم 2253 بتاريخ 1967/7/4، وقرارها رقم 2254بتاريخ 1967/7/14، وقرارها رقم 2851 بتاريخ 1971/12/20، وقرارها الصادر في أول ديسمبر عام 1996 وقرار مجلس الأمن رقم 242 بتاريخ1967/11/22، وقراره رقم252 في 1968/5/21 ، وقراره رقم298 بتاريخ1971/9/25، وقراره رقم 338 بتاريخ1973/10/22، وقراره رقم 476 الصادر في يونيو عام 1980، وقراره رقم478 في 1980/8/20 الذي يقضي بعدم الاعتراف بقانون القدس الذي أصدره الكنيست في 30/7/ 1980بشأن توحيد القدس (الشرقية والغربية) وجعلها عاصمة موحدة وأبدية لإسرائيل، كما دعا الدول التي أقامت بعثات دبلوماسية في هذه المدينة المقدسة إلى سحب هذه البعثات.. وأكد المجلس في قراره أن قانون الكنيست يشكل انتهاكاً صارخاً للقانون الدولي ويتعارض مع اتفاقية جنيف الرابعة الموقعة في 1949/8/12 والمتعلقة بحماية المدنيين وقت الحرب.

وقد سبق هذا القرار السالف الذكر، القرار رقم 267 بتاريخ 1969/7/3 المؤكد لعدم قبول مبدأ الا ستيلاء على الأرض بالغزو العسكري، وأبدى أسفه لعدم احترام إسرائيل لقرارات المجلس والجمعية العامة، وشجب بشدة جميع الإجراءات المتخذة لتغيير وضع القدس واعتبرها باطلة، ودعا إسرائيل مجدداً إلى إلغاء جميع هذه الإجراءات.. وقراره رقم 592 في 1986/12/8.. وقراره رقم681 في

1990/12/30.. وقراره الصادر في 1996/5/16.. وقراره الصادر في 1998/7/14.. وقراري منظمة اليونيسكو 15م/3342، 15م/3343 في خريف عام 1968.. وقرارها رقم/3422في نوفمبر 1972.. وقرار لجنة حقوق الإنسان رقم4 بتاريخ 1973/3/14.. وقرار محكمة العدل الدولية بشأن عدم أحقية إسرائيل في بناء جدار الفصل العنصري.. وقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة في 20/ 7 / 2004 بأغلبية 150 صوتاً ضد 6 أصوات منها بالطبع الولايات المتحدة وامتناع 10 عن التصويت بهدمه وإرجاع الأراضي المغتصبة التي بني عليها لأصحابها.

وما ذكر هنا في الحقيقة، يعد قليلا ً من كثير مما لا يؤيد حق إسرائيل في أرض فلسطين، غير أن جميع هذه القرارات من كل هذه المنظمات الدولية لا تعدو أن تكون حبراً على ورق، ولم تفكر أي من هذه المنظمات الدولية في معاقبة هذه الدولة المدللة والقائمة على الإرهاب واغتصاب أراضي الغير و التي تدافع عنها أمريكا باستماتة، بأي من تلكم العقوبات التي تستخدم ضد الدول الإسلامية والعربية للا سبب أو لأتفه الأسباب أو عقب اختلاق أسباب، حتى وصل حال إسرائيل الآن والمسلين – الذين تداعت عليهم الأمم بسبب إعراضهم عن منهج ربهم فأضحوا كالأيتام على مائدة اللئام – إلى ما وصل إليه.

وإذا كان يهود عصرنا لا يكفون عن دعوى أحقيتهم في أرض الميعاد بل وفى قبلة المسلمين الأولى (المسجد الأقصى) فيعملون – جاهدين وجادين لإثبات هذا الحق المزعوم والوعد المكذوب – على نقضه وطمس معالمه لحد أن صار هدمه لا قدر الله مسألة وقت على ما ذكرت صحيفة (هاآرتس) الإ سرائلية في 12/ 8/ 1969، فإن الثابت شرعاً وتاريخ:

1- أن سليمان الذي يريدون أن يرفعوا على أنقاض المسجد الأقصى هيكلا له خالوه، عمل على تجديد هذا المسجد العتيق المبارك الذي بني بعد المسجد الحرام بأربعين عاماً.. 1، وذلك بعد أن اندرست معالمه عبر القرون المتطاولة، فكيف بمن يجدد مسجداً هو ثاني مسجد بني على وجه الأرض، وله من المكانة ما له، أن يبني مكانه أو أسفله أو حتى بجواره هيكلا تتنافى رسالته مع رسالة المسجد تنافياً يصل إلى حد أن يبنى أحدهما على أنقاض الآخر كما تزعم يهود؟.

2- إن الملاحظ في حديث المؤرخين القدامى من أمثال ابن الأثير ت630هـ في كتاب (الكامل) وابن كثير ت 747هـ في كتابه (البداية والنهاية) وغيرهما2، أنهم لم يعرضوا سوى لبناء المسجد وإتمامه علي يد داود وسليمان عليهما السلام ولم يتطرقوا للحديث عن الهيكل3، بل إن الذين كتبوا في هذا الموضوع من الباحثين التوراتيين والإفرنج ومن ساندهم من حراس الفكر الآسن العربي في جامعاتنا ومراكز أبحاثنا ممن أشاروا إلي وجوده، لم يقدموا دليلا ً أو مصدراً واحداً يكشف عن حقيقة هذه المفردة كما خالها معشر يهود سوى التوراة، إذ لم تسهم المخلفات الأثرية في إثبات ذلك كما لا توجد مصادر تاريخية تدعم السجل التوراتي، وممن قرروا تلك الحقيقة من علماء الآثار في الجامعة العبرية وغيرها (أمنون بن ثور) و (طومسون) و (روني ريك) و (ميللر) و(غاريبيى) و(ليتش) و(فلا ناغن) وغيرهم، ومن ثم بدأ الإجماع في السنوات الأخيرة علي أن فكرة مملكة سليمان وهيكله المزعوم في فلسطين تتداعي تدريجياً.. وقد أسهم هذا الغياب للأدلة والآثار بقوة، في إسقاط ماضي هذا الهيكل المتخيل، وإن كانت فكرته لا تزال تهيمن علي خطاب الدراسات التوراتية4 على الرغم من أن التوراة باعتبارها نصا مقدسا ليست مرجعاً ولا تعكس بالضرورة الحقائق التاريخية، والأمر فيها – علي ما يبدو – لا يعدو أن يكون محاولة ممن صاغوا التوراة في القرن الثاني ق. م لإثبات تواجد لليهود بأي شكل في أرض الميعاد5.

---

(1) وذلك للحديث الذي رواه الشيخان عن أبى ذر حين سأل رسول الله r أي المساجد بني في الأرض أول؟ قال: المسجد الحرام قال: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى قال: كم كان بينهما؟ قال: أربعون عاماً".. ينظر في تخريجه البخاري أنبياء 10، 40 ومسلم في المساجد 1، 2والنسائي مساجد 3 وابن ماجة في المساجد 7 واحمد 5/ 150، 156، 160، 166، 167.

2 ينظر حديثهما عن هذه الحقبة في الكامل227/1، 228والبداية النهاية 3/33-9من المجلد الأول، وينظر كذلك تاريخ الطبري1/476-503.

(3) كما لا وجود لذكر هيكل سليمان في قواميس اللغة من نحو لسان العرب والقاموس المحيط والمصباح المنير ومختار الصحاح وغيرها، مع استيعاب هذه المعاجم لجميع مفردات اللغة ورغم قدم هذه المفردة.

(4) يقول عالم الآثار الأمريكي (غوردون فرانز) الذي قضى عاماً ينقب عن الآثار في القدس: "لا يوجد أي دليل يثبت أن هيكل اليهود كان موجوداً في هذا المكان، لكن اليهود يفترضون وجوده في هذا المكان دون أن يقدموا البرهان على دعواهم".. ينظر مجلة الأزهر 1996/12ص 1123ومنار الإسلام عدد1984/4.

(5) ينظر (اختلاق إسرائيل القديمة) مقال لأحمد الدبش ص89 من مجلة القدس عدد 28.

3- وتدعيماً لما سبق تقريره من عدم وجود أي أثر يدل على وجود الهيكل، نقول: إنه ومنذ أن وطئت أقدام الاستعمار الأوربي الأرض العربية في القرن التاسع عشر، والمستشرقون وعلماء الآثار ما انفكوا يتوافدون على القدس باعتبارها مهد المسيح ومكان دعوته وأيضا بوصفها أرض التوراة، وقد استغلت الحركة الصهيونية هذا الأمر في خططها للترويج لدعوى عودة اليهود إلي الأرض المقدسة، مستفيدة من أطماع القوى الأوربية الاستعمارية في الشرق، وكونت من أجل العثور على أي أثر يثبت حقها للعودة، جمعيات ومؤسسات ومدارس بحثية كان من أهمها:
صندوق استكشاف فلسطين وهو هيئة بريطانية أنشئت عام 1865م، جمعية الاستكشاف الفلسطينية وهي جمعية يهودية أمريكية تأسست عام 1870م، جمعية الآثار التوراتية وهي جمعية بريطانية أنشئت عام 1870م، والجمعية الألمانية للأبحاث الفلسطينية أنشئت عام 1877م، والمدرسة الفرنسية للدراسات التوراتية والأثرية أنشأت عام 1892م، والجمعية الألمانية للدراسات الشرقية أنشأت عام 1879م، والمدرسة الألمانية للأبحاث الشرقية للقدس تأسست عام 1900م وهي تعرف ا لآن باسم مدرسة أولبرايت نسبة لاسم العالم التوراتي (وليام فولبرايت) اليهودي الأصل، والمعهد البروتستانتي الألماني للدراسات التاريخية في الأرض المقدسة أنشأ عام 1902م، وقد باءت كل مساعي هذه الجمعيات بالفشل الذريع في إيجاد دليل أثري واحد يثبت وجود بقية للهيكل أسفل الحرم القدس الشريف أو المسجد الأقصى.
وخارجاً عن نطاق العمل المنظم والكثيف لهذه الجمعيات ووريثاتها من المؤسسات الإسرائيلية فقد عملت في مدينة القدس تحديداً، للبحث عن بقايا هيكل سليمان، عدة بعثات أثرية معنية بالحفائر، انطلقت جميعها من فرضية صحة ما جاء في التوراة من معلومات تاريخية وحضارية كان أهمها:
حفائر (باركلي) المبشر الأمريكي وكانت عام 1839م.. وحفائر (شارلفروارن) الضابط الإنجليزي وكانت عام 1867م.. حفائر (بلبيس) وهي فيما بين عامي 1893و1896م.. وحفائر (الكابتن واركر) ضابط إنجليزي وكانت عام 1911م بناء على طلب وتمويل المليونير اليهودي روتشيلد.. وحفائر (ماكاليستر) الإنجليزي 1923- 1926م.. وحفائر (كروفوت) عام 1927.. وحفائر المدرسة الإنجليزية للآثار عام 1961م.. وحفائر مصلحة الآثار الإسرائيلية عام 1967م تحت إشراف (دهنس).. والحفائر المشتركة بين الجامعة العبرية وجمعية الكشف الإسرائيلي منذ 1968م، ولم تسفر كل هذه الحفائر كذلك عن أي شيء سوى تشويه معالم الآثار والحضارة الإسلامية1.
4- ومما يدعم ما سبق تقريره من عدم وجود أي أثر للهيكل المتخيل.. ما أعلنه العالم الأثري الإ سرائيلي (زئيف هرتسوغ) حديثاً، وذلك في تقريره المثير للجدل الموسوم بـ (التوراة: لا إثبات على الأرض).. ذكر:
"أنه بعد سبعين عاماً من الحفريات المكثفة في فلسطين، توصل علماء الآثار إلى نتيجة مخيفة، هي أنها: لم يكن هناك أي شيء على الإطلاق، ولا ذكر لامبراطورية داود وسليمان"، ويأتي تقريره هذا – بـ الطبع – بعد أن استفرغ الدارسون التوراتيون والآثاريون ومنهم إفرنج ومنتسبون إلى دائرة الآثار الإ سرائيلية الرسمية كل ما في وسعهم، وبعد أن بحثوا في كل مكان ورد اسمه في التوراة التي جعلوها في يد والمجرف في اليد الأخرى، وكانت المفاجئة أن ما وجد يؤكد بطلان ما جاءت به التوراة ويوجب قراءة التاريخ العربي عامة والفلسطيني خاصة قراءة جديدة وموضوعية2.
5- كما يدعمه شهادة الدكتورة (كاتلين كابينوس) مديرة الحفائر في المدرسة البريطانية للآثار بـ القدس، التي قررت سنة 1968م ضمن فريق من علماء الآثار المسيحيين عدم وجود أي أثر لهيكل سليمان.. وشهادة فريق المهندسين العالميين الذين درسوا التربة التي يقوم عليها المسجد الأقصى في وقت لاحق، وتعمقوا فيها، وخلصوا إلى أنه لا يوجد في ذلك المكان أي دليل أو شبهة لأي أثر من الهيكل الذي تدعي الصهيونية أنه مدفون بجوار حائط البراق الغربي بالمسجد الأقصى3.

(1) وقد بدأت هذه الحفائر من الجهة الجنوبية والجنوبية الغربية من الحرم القدسي، وتصدع على إثرها بعض المنشآت التاريخية القريبة من الحرم، بل وهدم حي المغاربة وآثارها الإسلامية بالجرافات، وأزيلت – تحت إشراف وزارة الأديان الإسرائيلية وتحت سمع العالم وبصره – (الزاوية الفخرية) من العصر المملوكي، كما تم حفر نفق تحت المباني الأثرية التي يعود تاريخها إلى القرن السادس والسابع الهجريين (12-13م)، بطول 280متراً، وترتب على ذلك انهيار رباط الكرد ومبنى المدرسة العثمانية، وتصدع خطير في المدرسة الجوهرية أحد أهم الآثار المملوكية بالقدس.
(2) مجلة القدس العدد 28ص 90-91 عن صحيفة هاآرتس في 1999/10/3.
(3) ينظر(محمد نبي الإسلام) للطهطاوي ص13-14 و(القدس مدينة السلام عبر التاريخ) من مطبوعات الجمعية الشرعية بمصر العربية ص29 و

والغريب في الأمر، أنه وعلى الرغم من أن هذه المساعي السالفة الذكر والتي لم تسفر عن شيء يكشف عن الهيكل المدعى والتي تشكل عدواناً حضارياً ليس على معالم ومقدسات المسلمين وحسب ، بل وعلى الطابع السكاني بها بتشييد الفنادق والبيوت لإسكان المهاجرين اليهود مكان المباني الإسلا مية القديمة والعربية الحديثة.. إلا أن الصهاينة لا يزالون يرددون المزاعم ويخططون إقامة الهيكل على جزء من الحرم القدسي بل وعلى أنقاضه وفي القلب منه، وتتم محاولات وضع أساس الهيكل بشكل سنوي منذ عام 1989، ونماذج الهيكل موجودة معروضة، والتمويل تبرع به كبار الأثرياء اليهود بينما المهندسون وعلماء الآثار وغيرهم يتطوعون وجاهزون للعمل في أية لحظة.

وما جماعة أمناء جبل الهيكل – التي يعدها البعض جماعة متطرفة ضمن 25 تنظيماً إرهابياً يعمل لمثل ما تعمل له وبه هذه الجماعة – إلا تجسيد واقعي لآمال وطموحات الصهاينة في كل أنحاء العالم، إذ تضم هذه الجماعة الآلاف من كافة شرائح المجتمع الإسرائيلي، وقد قال زعيمهم (جبرشون سالمون) صباح يوم الحفل الذي أقيم في 7/29/ 2001 لوضع حر الأساس للهيكل المزعوم بعد مباركة من المحكمة العليا في إسرائيل: "حان الوقت لكي يكف الشعب اليهودي عن البكاء على خراب الهيكل ويبدأ في البناء وينهي الاحتلال العربي"1.

في إشارة لما يتم كل عام يوم التاسع من أغسطس المسمى عندهم بيوم الصياح والذي يمثل عندهم ذكرى خراب الهيكل الثاني الذي تم سنة 70م، وسعياً إلى تحقيق ما نادى به مؤسس الكيان الصهيوني (ديفيد جوريون) الذي قال: "لا معنى لإسرائيل بدون القدس ولا معنى للقدس بدون إسرائيل"، بل وعلى إثر أكثر من120 محاولة للاعتداء على الحرم وما ومن فيه وبناء مدينة سياحية أسفله ترتكب فيها الموبقات، والغريب أن ذلك كله يتم بمعرفة الغرب وبتأييد الإدارة الأمريكية التي تبنت أطروحات إسرائيل وفي الوقت الذي يقف فيه العالم الإسلامي موقف المتفرج من هذه المهزلة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

6- وكما عجزت تقارير وشهادات الصهاينة ومن والاهم عن إيجاد أي أثر للهيكل وعن إثبات أي دليل تاريخي يؤكد وجوده، فقد عجزت كذلك عن إثبات أي أثر أو دليل يقطع بأن حائط البراق الذي يسمونه ب- (حائط المبكى)، جزء من سور كان حول هيكل سليمان.. بل إن اللجنة الدولية المتفرعة عن عصبة الأمم المتحدة التي تكونت سنة 1929برئاسة (وولترشو) للنظر في الخلاف حول ملكية المبكى ومكثت شهراً كاملا ً في فلسطين من 6/19: 1930/7/19 واستمعت لأحد عشر محامياً من مسلمين ومسيحيين من مختلف دول العالم كما استمعت لأقوال 22 شاهداً قدمهم الجانب اليهودي، أثبتت من خلال وثيقة فندت فيها إيماءات الإسرائيليين بحقهم التاريخي في القدس، بأن الحائط وقف للمسلمين العرب ولا يجوز لأحد أن ينازعهم فيه، ومن ثم لم تقر هذه اللجنة وجهة النظر الصهيونية وما تخطط له من إخراج 10 آلاف مسلم من القدس القديمة بأي شكل وبمختلف الأساليب وإحلال 5000 يهودي مكانهم، ومن إزالة الأبنية التاريخية والآثار الإسلامية الملاصقة لسور المسجد الأقصى من الجهة الغربية وتوسيع حائط المبكى، ومن فتح أنفاق تحت المسجد، وحكمت لجنة (وولترشو) الدولية بعد دراسة وافية لكافة الوثائق، بإبقاء الحال على ما هو عليه ومنع اليهود من إدخال أي تغيير فيه.

وبنحو ذلك فعلت منظمة اليونسكو التي أدانت بقراريها 82، 83 في 1970 إسرائيل على إحراق المسجد الأقصى وعلى استمرارها في الحفريات كما دعتها للالتزام فوراً بالقرار 17م/3422الصادر في نوفمبر 1972 القاضي بالكف عن تغيير معالم القدس.

7- بل إن العالم اليهودي (إبراهام برانيس) الذي قضى معظم حياته في إجراء حفريات حول (القدس وعلاقتها باليهود)، كشف – حسب ما جاء في مجلة البيان الصادرة عن المنتدى الإسلامي ص 126 العدد156 نقلا ً عن جريدة السبيل الأردنية العدد 351 – عن استنتاجات غاية في الخطورة، تقول: "إنه لا يوجد أي دليل على وجود ما يسمى ب- (حائط المبكى)"، وقال في تصريحات أدلت بها مؤخراً: "إنه في المكان الذي يدّعى اليهود الآن أنه حائط المبكى والملاصق لسور المسجد الأقصى لا يوجد

(عروبة بيت المقدس) للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية العدد 67 ص 56.

(1) ينظر القدس عدد32 ص 32، 33 من مقال بعنوان (بعد وضع حجر الأساس للهيكل، حرب القدس تؤذن بالانفجار الكبير)، للأستاذ محمد جمعة، كما ينظر مقال آخر بعنوان: (الحفائر التوراتية في القدس) د. احمد الصاوي ص 22-26من نفس العدد.

شيء يسمى حائط المبكى".. الأمر الذي يؤكد من جديد عدم وجود أية أدلة مادية تشير من قريب أو من بعيد إلى الهيكل المزعوم، ويؤكد بالتالي كذب الادعاء اليهودي بالحق التاريخي لهم في أرض فلسطين.

8- كما يؤكد ذلك، موقع المسجد الأقصى نفسه.. ذلك أن من أبرز المعالم التي تميز الحرم الإسلامي الشريف أنه مستطيل ويأخذ الاتجاه من الشمال إلى الجنوب في اتجاه قبلة مكة المكرمة على خلاف الهيكل قبل إبادته وتدميره ومحوه، فإنه وكما أفادت دراسة الأثري الفرنسي (دي سولس) في كتابة (تاريخ الفن اليهودي) – كان يأخذ الاتجاه من الغرب إلى الشرق، وهذا في حد ذاته ينفي نفياً قاطعاً الرأي القائل بأن الهيكل يقوم مكان الحرم الإسلامي الشريف1، إن افترضنا جدلاً وجود هيكل في ا لأصل.

9- ثم إن القول بثبوت أحقية اليهود في بلاد المسلمين المقدسة بحجة الهيكل وبمجرد انتسابه لنبي الله سليمان الذي يعدونه نبياً من أنبيائهم، قول خاطئ ومجاف للحقيقة، ذلك أن سليمان وجميع آبائه وأجداده من النبيين ما كانوا قط في يوم من الأيام يهوداً أو نصارى أو عابدين لعجل أو وثن، والعقل والنقل يقضيان بهذا، فجميعهم كانوا على ملة أبيهم إبراهيم حنيفاً مسلماً، والشرك أبغض ما يكون إلى قلوبهم، وهم ما بعثوا إلا لترسيخ عقيدة التوحيد التي هي في الأساس ملة إبراهيم ووصيته إليهم، و اليهودية والنصرانية ما ظهرت وما وجدت إلا فيما بعد، فأنى له أن يكون هو أو أحد من أبنائه كذلك، (وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده.. آل عمران/65)؟.

وعليه فعندما يقرر القرآن حقيقة (ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين.. آل عمران/ 67)، يكون قد وافق العقل في تقرير ما كان عليه أبو الأنبياء وما كان عليه أبناؤه بالطبع من التوحيد الخالص، وما عند القوم من دليل يثبت أنهم أو واحداً منهم كان على غير ذلك.

ومن هنا فقد ساغ للقرآن أن يوجه خطابه مستنكراً وقائلاً: (أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده وما الله بغافل عما تعملون.. البقرة/140).. وأن يوضح بعدُ، ما كان من أمر سليمان عليه السلام ، ومن أمر تسبيح الخلق ودعوة الطير إلى دينه الإسلام، فلقد جاءه الهدهد – بعد أن استعرض عليه السلام ملكه ولم يجده – جاءه متعجباً لما تفعله ملكة سبأ، وقائلا: (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون. ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون. الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم.. النمل/24-26)، وبعد محاورة ومداورة بينها وبين سليمان (قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين.. النمل/44).. وأن يخلص من كل ذلك إلى حقيقة أن (أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا.. آل عمران/ 68)، وأن المسلمين من سلالة إسماعيل هم الوارثون الشرعيون لتراث الأنبياء لأنهم الذين آمنوا برسالاتهم الحقة بعد أن كفر بها غيرهم، وهم الذين صانوا بيت المقدس وسائر المقدسات الإبراهيمية والموسوية والسليمانية بعد أن تسبب غيرهم في خرابها، وهم الذين حافظوا – على مدار الأحقاب والأزمان – على تيك المقدسات واعتبروها جزءاً لا يتجزأ من تراثهم الديني والروحي2 بعد أن شوه غيرهم معالمها.

10- وإذا كان الخليل إبراهيم عليه السلام هو الذي رفع قواعد البيت الحرام بصحبة ابنه من هاجر إسماعيل عليه السلام، وكانت المدة الزمنية بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى على نحو ما ورد

---

(1) ينظر (القدس عربية إسلامية) د. فرج راشد ص 70عن كتاب(إسرائيل ركيزة الاستعمار بين المسلمين) د. حسن ظاظا ص116-117 مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة عدد 73

(2) ونخص بالذكر من الآثار التي رعاها المسلمون وعدوها جزءاً من تراثهم، (مسجد داود وسليمان) اللذين ينازعنا فيهما يهود الشتات، وقبة السلسلة المجاورة لقبة الصخرة من جهة الشرق في صحن الحرم، وهذه السلسلة تنسب أيضاً إلى سليمان بن داود وقد كتب فوق محرابها (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق .. ص/26).. وأبلغ من ذلك دلالة على ملكية المسلمين لهذه البقاع المباركة وأنهم أولى الناس بداود وسليمان، أنهم أنشئوا مسجداً في مكان يسمى (مقام النبي داود)، على ربوة جبل صهيون، وسدنته أسرة مسلمة كبيرة هي آل الداوودي نسبة إلى داود الذي يعرف الآن بالدجاني، وممن ذهب إلى أن في هذا المقام قبر النبي داود: شمس الدين المقدسي ومجيد الدين الحنبلي وعبد الغني النابلسي، وفي داخل الحرم الذي يضم المسجدين العظيمين: (الأقصى) و(الصخرة)، جامع يسمى جامع (قبة موسى) وآخر يسمى جامع (كرسي سليمان) وكلاهما يؤدى فيه المسلمون صلاتهم، هذا عدا الآثار التي تقع خارج بيت المقدس ومن أشهرها مقام نبي الله إبراهيم عليه السلام في المدينة المساة باسمه (ا لخليل) وفيه مسجد كبير.

في الصحيح أربعين عاماً.. فمن المعقول – سعيًا وراء تحقيق موعود الله لشيخ الأنبياء عليه السلام – أن يكون إسحاق عليه السلام ابنه من سارة، هو الذي جدد بإيعاز من أبيه أو بأمر من الله المسجد ا لأقصى في الأرض التي بارك سبحانه فيها وحولها، وعليه فليس لداود وسليمان من عمل سوى رفع قواعده وتجديده مرة أخرى، فأين الهيكل من كل هذا؟.

11- وإذا كان هذا المسجد هو عينه الذي أسرى برسولنا محمد r إليه وقد رآه – بالطبع – على الحال الذي كان عليه، وإلا لما أطلق عليه القرآن مسجداً، ولما تسنى للرسول أن يصفه للمشركين عندما جادلوه في أمره صبيحة أسرى به إليه.. فإن هذا يعني أن المسجد الأقصى خلال هذه المدة الطويلة التي استمرت من عهد إسحاق الذي كانت ولادته في القرن العشرين قبل الميلاد إلى مبعث النبي محمد سنة610 على الأرجح، وإسرائه r إليه بعيد ذلك، مروراً بعهد داود ثم سليمان الذي توفي سنة 930ق.م وبحكم البابليين والفرس واليونان والبطالمة والرومان لم تطله يد التخريب والإبادة، الأمر الذي يشكك في وجود هيكل أصلا ً بل وفى مصداقية ما جاء في التوراة بشأنه، إذ كيف يتأتى أن يكون ثمة هيكل قد دمر على نحو ما ورد في الكتاب المقدس – سفر الملوك الثاني 24: 13، 25وما بعدهما، وإرميا 52: 30 – وهو في مكان المسجد الذي ظل طوال هذه المدة وسيظل شاهداً على كذب وادعاءات اليهود في زعمهم أن الهيكل المزمع بنائه الآن من جديد، يقع أسفله أو بجواره، أو حتى في محيطه؟، إن الجواب المتعقل يقضي بأن لو كان الأمر على نحو ما يدعون لتم تخريب الأ قصى هو الآخر لوقوع الهيكل في أسفله كما يُدعى أو حتى في زمام البلاد التي طالها التدمير، وبخاصة مع ما قيل من أن آخر تدمير لحق المدينة كان بعد ميلاد المسيح بـ 138عاماً أي قبل تشريف النبي له وللبقعة المباركة من حوله بزمن ليس بالبعيد.

12- وحين هاجر صلوات الله وسلامه عليه إلى المدينة عقد بعد الهجرة مباشرة عقداً مع يهودها أقرهم فيه على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم، فلو كان هناك هيكل بحق كما يزعم يهود عصرنا لما خفي ذلك عن أسلافهم ممن عاصروا رسول الله وساكنوه، بل ولطالبوه به – وهم في هذا أصحاب باع طويل – ولأثبتوا أحقيتهم له أو لنصوا على الأقل على ملكيتهم إياه إن لم يتظاهروا بشأنه ويحتجوا على ذهابه إليه، لاسيما وقد عرفوا بإسرائه إليه ومعراجه منه إلى لسماء، منازعته إياهم فيه.

13- ثم إن النبي محمد r كان يكره التشبه باليهود والنصارى حتى قال قائلهم: إن محمدا لم يدع لنا شيئاً نحن عليه إلا وخالفنا فيه، فهل يعقل أن يحط رحل النبي r ليلة الإسراء في موضع كان في يوم ما هيكلا ً، تتنافى رسالته مع رسالة المسجد الذي بني عليه وفي ذات المكان الذي اعترف اليهود – قبل وبعد تحويل قبلة المسلمين إلى الكعبة – بأنه قبلتهم في صلاتهم مع علمهم واعترافهم كذلك بأنه r وصحابته ما كانوا يتجهون في صلاتهم أيضاً إلا إلى المسجد الأقصى؟.

14- وعند فتح المسلمين لبيت المقدس سنة636 من الهجرة وإعطاء عمر وثيقة الأمان لأهلها تضمنت الوثيقة: "ألا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود"، فلو كان هناك هيكلا ً كما يزعم يهود الشتات لنص عمر عليه في هذه العهدة الشهيرة ولأمّنَه باعتباره مكاناً مقدساً، إذ هو عينه الذي أمن النصارى على كنائسهم وصلبانهم، وهو عينه الذي رفض أن يصلي في كنيسة القدس عندما دعاه مطرانها لذلك، خوفا من أن يتخذ المسلمون ذلك ذريعة لأن يستولوا عليها ويحولونها بعدئذ إلى مسجد، بحجة أن عمر صلى فيها.

15- وعلى الافتراض جدلا أن ثمة هيكلا ً بُني ودمر مرتين كما يقال، فما الذي يمنع أن يكون محوه من الوجود قد تم عقوبة من الرب لبني إسرائيل على جرائمهم وتخليهم عن تعاليمه ووصاياه كما نُص على ذلك في كتبهم، فيكون الواجب عليهم مراجعة حساباتهم مع الله لا المزيد من استجلاب سخطه وغضبه؟.. وفي فعل ما هو على العكس مما ينبغي عليهم فعله مما ذكرنا، جاء في سفر الملوك الأ ول9: 1-10أنه "لما أكمل سليمان بناء بيت الرب.. وكل مرغوب سليمان الذي سُرّ أن يعمل.. تراءى – الملك – لسليمان ثانية.. وقال له الرب: قد سمعت صلاتك وتضرعك.. قدست هذا البيت الذي بنيته لأ جل وضع اسمي فيه إلى الأبد، وتكون عيناي وقلبي هناك كل الأيام.. إن كنتم تنقلبون أنتم أو أبنائكم من ورائي ولا تحفظون وصاياي فرائضي التي جعلتها أمامكم. بل تذهبون وتعبدون آلهة أخرى وتسجدون لها. فإني أقطع إسرائيل عن وجه الأرض التي أعطيتهم إياها والبيت الذي قدسته لاسمي

أنفيه من أمامي ويكون إسرائيل مثلا ً وهزأة في جميع الشعوب. وهذا البيت يكون عبرة كل من يمر عليه يتعجب ويَصفِر ويقولون لماذا عمل الرب هكذا لهذه الأرض ولهذا البيت. فيقولون: من أجل أنهم تركوا الرب إلههم الذي أخرج آباءهم من أرض مصر وتمسكوا بآلهة أخرى وسجدوا لها وعبدوها، لذلك جلب الرب عليهم كل هذا الشر".

كما أنه لا يختلف اثنان في إغاظة بني إسرائيل للرب ولا عبادتهم للعجل ولا انتهاكهم ومن شايعهم إلى يوم الناس هذا لسائر حرمات الله اثنان.

وعليه فلا عجب أن يحل عليهم غضب الله وأن ينزل بهم وعيده وأن يصبح هيكلهم في المرتين اللتين ورد ذكرهما في سفر أخبار الأيام الثاني36: 14-20 وفيه: أن تدميره في المرة الأولى تم على يد ملك الكلدانيين بختنصر الذي أمر جنده فـ "أحرقوا بيت الله وهدموا سور أورشليم، وأحرقوا جميع قصورها بالنار، وأهلكوا جميع آنيتها الثمينة. وسبى الذين بقوا من السيف إلى بابل فكانوا له ولبنيه عبيدا" وذلك بعد أن "أكثروا الخيانة حسب كل رجاسات الأمم ونجسوا بيت الرب الذي قدسه في أورشليم.. وكانوا يهزئون برسل الله ورذلوا كلامه وتهاونوا بأنبيائه".. وسفر عزرا وفيه أن عودته ونحميا إلى أورشليم في أيام كورش ملك فارس، وخضوع فلسطين للدولة الفارسية وكان ذلك عام 536ق.م، ثم إعادة بناء الهيكل وتدوين التوراة على نحو ما جاء في سفر عزرا، 1: 1-4 ولما حادوا عن الحق دمره سبحانه عليهم للمرة الثانية وأباده من الوجود هذه المرة إلى الأبد، وذلك حين بطش بهم القائد الروماني تيتوس سنة 70 من الميلاد.

ومن النبوءات التي أشير فيها صراحة بتدمير الهيكل وإبادته ومحوه من الوجود بحيث لا تقوم بعده قائمة، ما جاء ذكره على لسان نبي الله عيسى – الذي تآمروا على قتله على نحو ما تآمروا على قتل غيره من الأنبياء – في إنجيل متى 23: 37 -39: "يا أورشليم يا أورشليم – يريد سكانها من اليهود – يا قتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها، كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحها ولم تريدوا، هو ذا بيتكم يترك لكم خراباً. لأني أقول لكم إنكم لا ترونني من الآن حتى تقولوا مبارك الآتي باسم الرب".. وما ورد في إنجيل لوقا 21: 20-22 من قوله – عليه السلام – لبعض تلاميذه فيما سيؤول إليه أمر أورشليم والهيكل: "متى رأيتم أورشليم محاطة بجيوش فحينئذ اعلموا أنه قد اقترب خرابها.. لأن هذه أيام انتقام، ليتم كل ما هو مكتوب".. ولا يخفى ما في هذين النصين، من تلميح إلى قرب نهاية بني إسرائيل ومبعث النبي الأمين r الذي سيؤول إليه أمر موعود الله سبحانه في الملك والنبوة.

ومن تلك النبوءات، ما جاء من مخاطبة عيسى لأورشليم في إنجيل لوقا 19: 43-46، قال: "ستأتي أيام ويحيط بك ِ أعداؤك ِ بمترسة ويُحدّقون بك ويحاصرونك ِ من كل جهة. ويهدمونك وبنيك فيك ولا يتركون فيك حجراً على حجر.. ولما دخل الهيكل ابتدأ يِ ُخرج الذين كانوا يبيعون ويشترون فيه. قائلا ً لهم: مكتوب أن بيتي بيت الصلاة، وأنتم جعلتموه مغارة لصوص".. ثم راح يضرب المثل لأولئك المخاطبين من الكهنة والكتبة ووجوه الشعب الذين تآمروا على قتله، ويذكرهم بأمر الكرّامين الذين رفضوا الحجر الذي صار فيما بعد رأس الزاوية، في إشارة وبشارة واضحتين بخاتم النبيين وآخر المرسلين محمد r.

مما يعني أن يسوع وحوارييه كانوا يتوقعون ما سيحدث لمعشر يهود، كما يعني كذلك الإيذان بأنه لا عودة لأولئك الأنكاد، وذلك لضياع كيانهم إلى الأبد بعد أن منحهم الله الفرصة تلو الفرصة لكن دون جدوى.. وعليه فإن ما يسعى إليه بنو إسرائيل الآن من عربدة ومن إهلاك للبلاد والعباد في محاولة منهم لإعادة الهيكل – مع ما هم عليه – يعد تمادياً لمخالفة أوامر الرب من ناحية، كما يعد اعتراضاً على حكم الله وعدم رضاء لما قضي فيه بأمر – ولاسيما بعد تحول موعود الله عنهم – من ناحية ثانية، كما يُعد تمرداً ومخالفة لما تنبأ به عيسى عليه السلام آخر أنبياء الله ورسله إليهم من ناحية ث الثة.

16- لقد صرح (جوستاف لوبون) في كتابه (حضارة العرب) أن ما يسمى بالهيكل ما هو إلا أكذوبة، كما صرح الكاردينال (اسطفانوس الأول) بطريريك الأقباط الكاثوليك في جريدة الأهرام المصرية يوم الجمعة 1969/8/22 – أي عقب إحراق اليهود للأقصى في 1969/8/12 الذي أدانه مجلس الأ من بالقرار رقم 271في 1969/9/15 – مستنطقاً ما ذكرناه في الأسطر القليلة الماضية بأن "إحراق

إسرائيل للمسجد الأقصى تحد لكل النبوات والكتب المقدسة"، وأردف يقول: "إذا كان اليهود لا يؤمنون بذلك فليرجعوا إلى التاريخ، وليروا ما صنعه أجدادهم في عهد الإمبراطور (يوليانوس) الذي بنى عام 62 م إيلياء على أنقاض مدينة القدس، إيلياء عام 62ميلادية، لقد حاولوا إعادة بناء هيكل سليمان فهبطت ألسنة النار وزلزلت الأرض وأزالت كل ما صنعوا "1.

سبحان الله إنها إذاً الإرادة الإلهية والانتقام الرباني ولا شيء غير ذلك، وعلى معشر يهود إن كان عندهم إيمان بذلك وبأسفارهم، أن يكفوا عن عبثهم بالمقدسات وألا يزيدوا – بذلك وبسحل الأبرياء وبقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس والنساء والأطفال وإهلاك الحرث والنسل – من سخط وغضب الرب أكثر مما الأمر عليه الآن، وأن يسلموا بقضاء الله فيهم ويتمثلوا أوامره، وأن يعترفوا ﻟ خاتم أنبيائه محمد r بموعود لله له ولأمته في الأرض والإمامة والريادة، وأن يوقنوا بألا نجاة لهم في الدنيا والآخرة إلا بذلك إن كانوا يريدون لأنفسهم نجاة.. وهيهات.

17- إن الفكرة الصهيونية السياسية التي نادى بها (ليوبنسكر) الطبيب اليهودي الروسي سنة1881م والتي تنادى بوجوب تهجير اليهود من المجتمعات التي يعيشون فيها إلى إقليم يمتلكونه ليكوّن أمة يهوديةً، وتبعه فيها هرتزل الذي رشّح لتحقيق هذا الغرض أرض فلسطين2 باعتبارها الموطن الأصلي لهم، ولهم – على حد زعمه – الحق الشرعي في أن يعودوا إليه.. هذه الفكرة وإن أفلحت بفضل مسايرة الانتداب البريطاني لتدعيم هذا الاتجاه، إلا أنها حملت في طياتها الزيف والكذب والزور و البهتان.

ذلك أن الكثرة الغالبة من اليهود الذين نزحوا إلى فلسطين في العصور الحديثة، لا يمتّون بأدنى صلة ليهود فلسطين القدماء، ومن ثم فليس لهم حق تحت أي مبرر فيما يغتصبونه من أراضي الغير إن صح الزعم بأن ليهود فلسطين حق شرعي أصلا ً في تلك الأراضي المقدسة، ولاسيما أن أولئك النازحين ينتمون إلى أجناس غير سامية اعتنقت اليهودية في فترات متباينة عبر التاريخ.. فقد كان من اليهود الذين طردهم الملك الكاثوليكي (فرديناند) من أسبانيا ليستوطنوا أرض فلسطين، كثير من المواطنين الأسبان الذين تهودوا وانتشروا في إيطاليا وفرنسا والشرق الأوسط، ومثل ذلك يقال عن يهود طائفة (الأشكيناز) وهم يهود شرق أوربا ووسطها، فهم أحفاد الخزر الذين عاشوا في جنوب روسيا واعتنقوا الديانة اليهودية في القرنين السابع والثامن الميلاديين، بل إن معظم الصهاينة أوربيون وليس هناك أي رابط عضوي بين أجداد هؤلاء جميعاً وبين الأسباط3.

فأنى لقوم لا يمتّون لموطن بأدنى صلة، أن يُخرجوا منه أهله بعد أن يهدروا دمه ويستحلوا باسم الدين العيش فيه على حساب من أخرجوهم من ديارهم بغير حق؟، وأي دين وأي عقل وأي منطق وأي قانون وأي شريعة – باستثناء قانون الظلم وشريعة الغاب – يرضى بهذا؟ ولمَ لمْ يقم من تبنوا هذه الفكرة من الأوربيين والأمريكيين وغيرهم ممن تتقاطر قلوبهم شفقة ورحمة على أولئك الذين مزّقهم الله – الرحيم بخلقه – كل ممزق بعد أن قطعهم في الأرض أمماً وهاهم قد أتوا من كل حدب وصوب.. لمَ لا يقومون بهذا المعروف الذي لن ينساه لهم الرب وسيذكره التاريخ لهم بكل فخر وإعزاز، فيقتطعون من بلادهم جزءًا يؤوونهم فيه، ولن تعدم بريطانيا مقاطعة ولن تعدم أمريكا ولاية تفرغها لأولئك البؤساء المطرودين والضحايا المساكين، على الأقل ليوفروا على أنفسهم هذه الأموال الطائلة والجهود المضنية والإمدادات المكلفة التي يبعثون بها إليهم من أقاصي البلاد ومن أدانيها، وبخاصة أن بلادنا ليست بأسعد حظاً ولا أحسن حالا ً من بلادهم فبلادهم رمز التقدم والحضارة، ومبعث الرقي والثقافة؟.. مجرد أسئلة تحتاج إلى جواب.

---

(1) المسجد الأقصى للشيخ عبد اللطيف المشتهري ص 83.

(2) من بين خيارات عديدة كان من بينها –على ما سبق ذكره – سيناء وتحديداً قرب منطقة العريش التي اقترحها هرتزل على (تشامبرلين) وزير المستعمرات البريطاني الذي كان يعارض بشدة تدفق يهود روسيا ورومانيا على إنجلترا عقب مذابح 1880م إثر اغتيال قيصر روسيا الإسكندر الثاني، غير أن الوزير اشترط موافقة كرومر في مصر أولا ً، ولم يكن بوسع كرومر – الذي كان يواجه صعوبات في حل النزاع على حدود سيناء مع الدولة العثمانية أن يوافق على هذا الاقتراح، كما كان من بين الخيارات شرق إفريقيا التي اقترحها هرتزل أيضاً عندما اجتمع بعد عودته من لندن في 1903/4/24م بالوزير ولم يكن الوزير يعرف على وجه الدقة ما إذا كان الموطن المقترح في شرق أفريقيا في أوغندا أم في كينيا وعلى أيٍّ فقد رفضت الفكرة في المؤتمر الصهيوني السادس في بال، واستغلت الحركة الصهيونية الأماني الروحية لليهود في العودة إلى أرض الأجداد على حد تعبيرها واختار هرتزل مؤخراً تحت ضغط من الحركة أرض فلسطين كأفضل مكان لغرس الدولة اليهودية المزعومة على ما مر بنا في بعض هوامش التمهيد لهذا البحث.. ينظر الامبريالية والصهيونية والقضية الفلسطينية د.بشير نافع ص86 والقدس عربية إسلامية د.سيد راشد ص205وما بعدهما.

(3) ينظر القدس عربية إسلامية د.فرج راشد ص 216.

18- ومن الأمور الثابتة كذلك أن الرسول r أوقف في أرض الخليل أول وقف، وجعله للصحابي الجليل (تميم بن أوس) الداري، وقد عرف هذا الوقف حتى الآن بالوقف التميمي نسبة إليه.. كما أوقف الخليفة عمر بن الخطاب وقفاً آخر في جبل أبي غنيم للصحابي الجليل (عياض بن غنم)، وقد عرف هذا الجبل ولا يزال باسمه.. ومن المعلوم بالضرورة أن الوقف الإسلامي لا يجوز أن يباع ولا أن يشترى، ومن المعلوم أيضاً بالضرورة أن اليهود الذين يجيدون فنون التزوير والتزييف احتلوا هذه الأ ماكن وادعوها لأنفسهم، كما تبرع اليهودي (زيمسكوفيتش) بـ 600مليون دولار لبناء مستوطنة في جبل أبي غنيم ضارباً هو وقومه بكل القوانين والشرائع السماوية عرض الحائط، الأمر الذي أثار حفيظة علماء المسلمين في أنحاء المعمورة.
وكان من توصيات المؤتمر الخامس لمجمع البحوث الإسلامية في 22من ذي الحجة 1389هـ الموافق 28من فبراير 1970م أن بيت المقدس وما حوله إنما هي أرض أوقاف أوقفها المتبرعون منذ القدم على مصلحة المسلمين، ومن ثم فهي ملك للمسلمين جميعاً، واغتصاب شبر منه تحت أي مبرر يفرض عليهم السعي لتحريره لاتفاق أهل العلم على (أن شبراً ديس من أرض المسلمين بالمشرق وجب على أهل المغرب أن يسعوا لاسترداده)، وأكدت التوصيات على (أن الجهاد بالأموال والأنفس أضحى فرض عين)، وأنه وباعتبار (أن الأرض المقدسة والقدس الشريف والمسجد الأقصى ملك للمسلمين كلهم، فإنه يتحتم على المسلمين في كل مكان أن يبادروا إلى تحمل واجباتهم في الجهاد والعمل على إرسال المجاهدين إلى ساحات القتال)، (ومن يتخلف عن تحمل أعبائه فقد سلك سبيلا ً غير سبيل المؤمنين).. لكن الخيانة من قبل حكام المسلمين الذين هادنوا أعداء الإسلام وماددوهم لأكثر مما أجمع عليه أهل العلم – من ألا تكون المهادنة لأكثر من عشر سنوات – ونصبوا حروبهم ضد المجاهدين، حالت دون إتمام هذه الصفقة مع الله، وأبت أنظمتهم ولا تزال إلا أن تسلك غير سبيل المؤمنين، فإلى الله وحده المشتكى وإنا لله وإنا إليه راجعون.
19 - يضاف لكل ما ذكر من أدلة في عدم أحقية بني إسرائيل في القدس الشريف بما فيها ساحة المسجد الأقصى وما يدعونه من أمر الهيكل، أن كافة المنظمات الدولية تشهد بعدم أحقيتهم في أي من هذه الأراضي المقدسة، وبالتالي عدم أحقيتهم في الاعتداء على أهلها ولا في إحداث أية تغييرات تحدث على الأرض.. ولعل أهم قرار اتخذه مجلس الأمن في هذا الشأن القرار رقم 672في أكتوبر عام 1990 والذي طالب فيه إسرائيل – بصفتها قوة احتلال – بالوفاء بمسئولياتها القانونية، وأدان بـ الإجماع ارتكاب إسرائيل لأعمال العنف التي جرت ضد الفلسطينيين في ساحة المسجد الأقصى في 1990/10/8، وعندما رفضت إسرائيل تنفيذ القرار أصدر المجلس قراراً آخر برقم 673 في 1990/10/24 أكد فيه إصراره على أن تمتثل إسرائيل للقرار السابق1، وفي هذا كله فضلا ً عما سبق ذكره، دلالة غير مباشرة من المجتمع الدولي على عدم وجود ما يدعيه اليهود من أمر الهيكل.
20- فإذا ما أضفنا إلى تلك الأدلة المنطقية أن أول من بنى مدينة القدس منذ ثلاثين قرناً قبل الميلاد، هم اليبوسيون وهم من العرب القدامى على ما جاء التصريح به في سفر إرميا 25: 24، ونصه: "وكل ملوك العرب وكل ملوك اللفيف الساكنين في البرية".. وسفر حزقيال 27: 21 وفيه: "العرب وكل رؤساء قيدار.. في هذه كانوا تجارك".. وسفر أخبار الأيام الأول 11: 4 وفيه: "وذهب داود وكل إسرائيل إلى أورشليم أي يبوس وهناك اليبوسيون سكان الأرض".. وسفر أخبار الأيام الثاني 9: 14ونصه: "وكل ملوك العرب وولاة الأرض كانوا يأتون بذهب وفضة إلى سليمان".. وسفر يشوع 15: 63 قال: "وأما اليبوسيون الساكنون في أورشليم فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم، فسكن اليبوسيون مع بني يهوذا في أورشليم إلى هذا اليوم".. وسفر القضاة 19: 11، 12 ونصه: "وفيما هم عند يبوس والنهار قد انحدر جداً قال الغلام لسيده تعال نميل إلى مدينة اليبوسيين هذه ونبت فيها. فقال له سيده لا نميل إلى مدينة غريبة حيث ليس أحد من بني إسرائيل هنا".. وعندما أراد داود أن يبني هيكلا للرب في القدس قام بشراء البيدر الذي كان ملكاً لرجل يبوسي يدعي (أرونة) على ما جاء في سفر صموئيل الثاني 24: 21- 25.
إلى غير ذلك مما يكشف من النصوص التوراتية ذاتها عن حقيقة أن القدس (يبوس)، هي مدينة

(1) ينظر قضية القدس رؤى وآراء من مطبوعات الهيئة العامة للكتاب ص43.

العرب اليبوسيين.. وأنهم الذين أقاموا وتعاقب على حكمهم فيها ملوكهم، دون أن يشاركهم في سكناها أحد من بني إسرائيل.. وأنها كما وصفها سيد الغلام الإسرائيلي بالنسبة إليهما – ولكل إسرائيلي من باب أولى – (مدينة غريبة).

21- وأضفنا إلى كل ذلك أن الحفائر الأثرية التي جرت حول المدينة، كشفت أنه في العصر البرونزي 2600-1800ق.م كانت المنطقة وما حولها عامرة باليبوسيين.. وأن الفتح الإسلامي جاء والمدينة خالية تماماً من اليهود لأنها كانت محرمة عليهم، وهم من بعد موسى ومن بعد الغزو البابلي والروماني، قد قطّعهم الله في الأرض أمماً، ومزّقهم كل ممزق.. وأن وجودهم المتقطع على مدار هذه الفترة كان وجوداً طارئاً لم يقم لهم خلاله – على ما سبق تقريره – ملك ولا دولة.

تأكد لنا عدم أحقيتهم لا في مدينة القدس فحسب بل ولا في أي شبر من أرض فلسطين.. وأصبح لزاماً على كل مسلم أن يطّلع بدوره في السعي الدائم لأن تظل هذه القضية ساخنة ومحور اهتمامه، وفي عدم الرضوخ لما يسمى بسياسة الأمر الواقع وعدم المبالغة في وصف قوة العدو والإعداد له بكل ما أوتي من قوة ورفض التطبيع معه، وفي استشعار الهم واستثمار وحشد كل الطاقات لخدمة هذه القضية، وبث روح الأمل والتفاؤل، وتمني الشهادة في سبيل الله، والعمل على تربية جيل يعرف هذه الحقائق.. وأن يستحضر معنى ما جاء في قوله تعالى: (لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد. متاع قليل ومأواهم جهنم وبئس المهاد.. آل عمران/196، 197)، وقوله: (هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين.. الحشر/2).. وعرفنا إلى جانب ذلك، أن ما فعله عمر عشية تسلم مفاتيح بيت المقدس – حين اشترط عليه أهل إيلياء وأقرهم على ذلك بطريرك القدس ألا يسمح لليهود بدخولها أو الإقامة فيها – لم يأت من فراغ، وازداد يقيننا بوجوب أن يظل العهد العمري محترماً ومعمولاً به لأن المسلمين مأمورون أن يتبعوا سنة الخلفاء الراشدين المهديين، ولا ريب أن عمر أحدهم1.

وعلى مسيحي العالم أيضاً حيال ما فعله قساوستهم، أن يثبتوا فوراً وعلى الملأ ولاءهم لهم، فيمضوا ما عاهد عليه أسلافهم – وفي المقدمة منهم بطريركُ بيت المقدس (صفرنيوس) – أميرَ المؤمنين عمر، في عدم مساكنة يهود الشتات للمسلمين العرب أصحاب الأرض في هذه البقاع المقدسة بالذات، فليس من المعقول أن يشترط بطريرك بيت المقدس على عمر ألا يسكن بهذه البقاع المقدسة يهودي وتظل خالية منهم منذ عهد عمر وحتى خلافة السلطان عبد الحميد العثماني، ثم نرى نصارى هذا العصر هم الذين يسعون بكل ما أوتوا من قوة لنقض ما أبرمه كبراؤهم ولتمكين اليهود من القدس.

وقد تمثل ذلك بوضوح: في وعد بلفور سنة 1917، ثم في تمكين بريطانيا إبان فترة الانتداب على فلسطين لليهود من الهجرة إليها وتشجيعها الميلشيات اليهودية كالأرجون وعصابة شتيرن بقيادة (بيجن) و(شامير) على بث الرعب والإرهاب وإهلاك الحرث والنسل في القرى والمدن الفلسطينية.. كما يتمثل الآن في: قيام أمريكا بالدفاع عن اليهود وعن ممارساتهم المنافية لأبسط مبادئ الإنسانية ضاربة بجميع العهود والمواثيق الدولية عرض الحائط.. ويتمثّل كذلك في: تلك الدعوات المدمرة والمريضة والقائلة بالتأهب لحرب إبادة لجميع معالم الحضارة والتاريخ الإنسانيين، استعجالاً لعودة المسيح وفق المضمون الأسطوري لمعركة (هرمجدون) التي اخترعها القس (جيري فولويل) وزيف لأجلها الواقع الثابت والحقيقة اليقينية للمسيح رسول المحبة والسلام، مقابل ما قدمته وتقدمه إسرائيل له من مزايا ورشاوى، والتي يقودها هو وأتباعه من نصارى الغرب من أمثال (ليندسي) و(بات روبرتسون) و(جون هاجي) و(كين بوغ) و(جاك فان إيمب) و(تشارلز تايلور) و(ستيوارت) و(راي برد بيكر) و(بول كراوش) و(جيمس سي روبسون) و(لويس بالاو) و(هيبربرت أرمسترونج) وغيرهم ممن ذيع صيتهم ووجدوا لدعاويهم الباطلة والكاذبة آذاناً صاغية من عامة نصارى الغرب، بل

---

(1) ولاسيما مع ما جاء في عهدة أهل إيلياء التي أعطاها عمر للبطريرك، وفيها: "وعلى ما في الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين"، كما جاء في آخر الوثيقة التي حررها عمر للبطريرك في العشرين من شهر ربيع الآخر سنة 15هـ ،636م يعني بعد إقرار الأخير لما أقر به أهل إيلياء: "وكل من قرأ مرسومنا هذا من المؤمنين وخالفه من الآن إلى يوم الدين فليكن لعهد الله خائناً ولرسوله ولكتابه باغضاً".. كذا هو في تاريخ الطبري 609/3 أحداث سنة 15هـ (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة) د.محمد حميد الله ص380 دار الإرشاد بيروت ط.3 لعام 1389، (تاريخ كنيسة أورشليم الأرثوذكسية) ص41، 42لشحادة خوري ونقولا خوري نقلاً عن (دلل الأرض المقدسة) ص144للأرشمندريت بنيامين بوانيدي ط. دار دير الروم بالقدس الشريف عام 1877.

لحد أن صو ّت عليها أكثر من نصف الأمريكيين حسب استطلاع للرأي أجرته مجلة (التايم) سنة 1998.

وعلى مسيحي العالم أن يثبتوا كذلك ولاءهم لكتابهم المقدس، فيعملوا جاهدين على إنفاذ حكم الإ نجيل في إجلاء أولئك اليهود من ديار المسلمين، لأن أولئك اليهود لا يزالون يحقرون الأنبياء – وعلى رأسهم عيسى عليه السلام – ويهينونهم بنسبة ما لا يجوز إليهم، وهم ولا يزالون كذلك، يـ ُغضبون الرب ويغيظونه بقبيح فعالهم، ولاسيما أن لعنات ودماء السيد المسيح عليه السلام الذي تآمروا على قتله والذي أعلن عدم رضائه عنهم ولا عن وجودهم في هذه البلاد المقدسة لا تزال تلاحقهم.. ففي حقهم وعلى لسان يسوع حين رأى هذه الإهانات: "أترون هذه الأحجار العظيمة؟ لا يترك حجر على حجر إلا وينقض".. وفي إنجيل متى 24: 30-33، 35-39 وعلى لسانه أيضاً: "تقولون لو كنا في أيام آبائنا لما شاركناهم في دم الأنبياء. فأنتم تشهدون على أنفسكم أنكم أبناء قتلة الأنبياء. فاملئوا أنتم مكيال آبائكم. أيها الحيات أولاد الأفاعي كيف تهربون من دينونة جهنم.. يأتي عليكم كل دم زكي سفك على الأرض من دم هابيل الصديق إلى دم زكريا بن برخيا الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح. الحق أقول لكم إن هذا كله يأتي على هذا الجيل. يا أورشليم يا أوشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها، كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا. هو ذا بيتكم يترك لكم خراباً. لأني أقول لكم إنكم لا ترونني من الآن حتى تقولوا: مبارك الآتي باسم الرب".

ولقد جاء على لسان هذا المبارك الذي جاء – فيما بعد – باسم الرب فكفروا به – إلا من رحم ربك – وهو محمد r: أن الله قد أخذ (ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه.. آل عمران/187).

ولعلنا ندرك الآن أكثر من أي وقت مضى أن دين الله الخاتم يحتم على المنتسبين إلى محمد وإسماعيل عليهما السلام والراغبين في ملة أبيهم إبراهيم، أن يحرروا تلك البقاع المباركة باعتبارهم وحدهم أصحاب الحق الشرعي والتاريخي فيها، والمؤتمنين عليها، وبخاصة أن التاريخ يشهد ولا يزال سيل الفظائع التي يرتكبها معشر يهود في حقها وفى حق أصحابها المقيمين بها، كما يشهد ما أصابها عندما احتلها الصليبيون من قبل وقتلوا وذبحوا فيها وفى مسجدها – باسم المسيح نبي الرحمة والمحبة الذي هو منهم براء – ما يقرب من السبعين ألفاً من المسلمين دون تمييز بين شيخ أو امرأة أو عالم دين أو طفل أو مقاتل، وبقيت ترزح تحت أيديهم تسعين عاماً أهلكوا خلالها الحرث و النسل[1] إلى أن حررها القائد المسلم صلاح الدين عام 1187م.

****

(1) ينظر بشاعة ما أحدثه أولئك الذين أخفوا حقدهم وراء الصليب في المسلمين ومقدساتهم وبلادهم: تاريخ الحروب الصليبية لـ (ستيفن رنسيمان) والكامل في التاريخ لابن الأثير 283/10-284، والقدس عربية د.فرج راشد ص 184وما بعدها، والصراع بين العرب وأوربا د.عبد العظيم رمضان ص 321 وما بعدها، والغريب أن يحدث ذلك منهم في حين تركهم خليفة المسلمين عمر بن الخطاب وما يدينون، وصان لهم حريتهم وكرامتهم وحرماتهم، لكن نظلم الإسلام إن نحن قسناه بغيره أو قارنا رموزهم بسواهم.

الحقيقة العاشرة
عاجل مستقبل أرض الميعاد وآجله يحدده الشرع الحنيف وسنن الله الكونية
.. لا أمزجة البشر
****

انتهينا فيما سبق إلى أن موقع النزاع الآن بين بني إسرائيل وبني إسماعيل على تحقيق وعد الله لا محل له، لأن هذا الوعد قد قضى الله فيه بأمر، فقد قضى سبحانه ضمن ما قضاه: ألا حق لبني إسرائيل في هذا الوعد بعد بزوغ فجر الإسلام، لا لأنه كان موقوتاً بمدة معينة انتهت وفقط.. ولكن لأ نهم – مع ذلك وفي أثناء مدتهم وفترة تحقق موعود الله فيهم – تعدوا حدود اللياقة مع الله ورسله، فاحتالوا على محارم الله وخالفوا وصاياه وشريعته، واجترئوا على أنبيائه والصلحاء من عباده.

ولو أنهم استقاموا على الطريقة، لظل موعود الله لهم ومعهم إلى أن أسلموه إلى أبناء أعمامهم عن طواعية اقتداءً بحال أنبيائهم مع نبينا ليلة الإسراء، بل ولما سلط الله عليهم ومن قبل ذلك بزمن طويل وإلى يوم القيامة من يسومونهم من كل أمة سوء العذاب.. ولكن لمكرهم وكيدهم، آثروا البلاء والكفر والتعاسة والشقاء على سواها.

يقول ابن كثير في تفسير قول الله تعالى (وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب.. الأعراف/ 167): "إن موسى عليه السلام ضرب عليهم الخراج سبع سنين وقيل ثلاث عشرة سنة وكان أول من ضرب الخراج، ثم كانوا في قهر الملوك من اليونانيين والكشدانيين و الكلدانيين، ثم صاروا إلى قهر النصارى وإذلالهم إياهم وأخذهم منهم الجزية والخراج، ثم جاء الإسلا م ومحمد r فكانوا تحت قهره وذمته يؤدون الخراج والجزية"1.

إنه الملخص الأمين والشديد الإيجاز لتاريخهم الحالك السواد.. لقد ذهب وعد بني إسرائيل – بعد أن كثر فيهم الخبث وافتقد فيهم الأمل – إلى غير رجعة.. وإذا كان حال أكثرهم مع موسى هو ما ذكرنا، فقد (خلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه.. الأ عراف/ 169)، والخـ َلف بسكون اللام يطلق على الطالح من الأجيال خلافاً لما كان منها بالفتح.. وهذا ما كان بالفعل – وبخاصة من الأجيال التي تلت جيل أصحاب السبت التي جاءت الآية عقب ذكر قصتهم، وتلت عصر تمكينهم وتجمعهم، أقصد: عصر حكم القضاة الذي استمر قرابة المائتي عام، وحكم الملوك الذي طال شاؤول (طالوت) وداود وسليمان عليهما السلام، والذي استمر زهاء المائة

(1) تفسير ابن كثير 26/2.

عام كانت البلاد تحت يد أصحابها من العرب – فلقد ورثوا التوراة عن أسلافهم يفسرونها بأهوائهم ويقرءونها ولا يعملون بها، ولم يكتفوا بهذا حتى راحوا بما فيهم علماؤهم وقضاتهم، يغيرونها ويبدلونها ويحرفونها ويهونون العمل بأحكامها مقابل الرشا والسحت.. وصار مثلهم في استخفافهم بشرع الله وإصرارهم واستمرارهم على ما هم عليه، وبعد تركهم ما أخذ الله عليهم من مواثيق عن عمد وعلم كما قال تعالى: (كمثل الحمار يحمل أسفاراً.. الجمعة/5).

ولقد وصل الأمر بهذا الخلف الممتد ليوم القيامة، إلى أن يعظم فساده كلما تقادم الزمان على الرغم من أنه ورث التوراة عمن سبقه، وإلى أن يصير حاله على الدوام أسوأ من حال من سبقه، بحيث أضحى وكلما لاحت له معصية واقعها ولا يبالي، وأن يعتاض عن بذل الحق ونشره بعرَض الحياة الدنيا، وما اتبَاعه – في هذا الزمان – كل الوسائل الرخيصة في تحقيق مآربه وانتهاجه مبدأ الغاية تبرر الوسيلة إلا دليل صدق على ذلك، ناهيك عما جبل عليه من عنصرية تجسدت في الاعتداء على ا لآخرين بعد هدم منازلهم وإخراجهم من ديارهم بغير حق واستحلال أموال ودماء الغير1 وتعطش لا نتهاك حرمة هذا الغير دون مراعاة لأية مبادئ أو قيم، وقد شاءت إرادة الله أن تنكشف (بروتوكولات حكماء صهيون) لتبدي حجم المؤامرة الجهنمية التي اجتمع لها وأجمع عليها أبالسة الأرض، والتي تهدف إلى إفساد العالم وانحلاله لإخضاعه في النهاية لمصلحة اليهود ولسيطرتهم دون سائر البشر.

كما شاءت إرادته سبحانه، أن ينكشف ما اعتبروه تفسيراً للتوراة وأوجبوا العمل به، وقدموه حتى على التوراة نفسها فيما أسموه بـ (التلمود)، ومن هذه الظلمات التي غص بها هذا الكتاب: أن تعاليم الحاخامات لا يمكن نقضها ولا تغييرها ولو بأمر الله، وأنه – تعالى عما يقولون – يقضي ثلاث ساعات من النهار يلعب مع الدلافين، لكن وقت لعبه قد ولى بعد تدمير الهيكل، إذ من ذلك الوقت لم يعد لله جلد في اللعب والرقص كما كان يصنع في الأزمان السالفة، وأن أول رقصة رقصها الرب كانت مع حواء بعد أن برّجها وزينها وسرّج شعرها بنفسه، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.. كما جاء فيه أن اليهودي أحب إلى الله من الملائكة، إذ الذي يصفع اليهودي كمن يصفع الله، ولأنه الشعب المختار فإنه يستحق وحده الحياة الأبدية أما الشعوب الأخرى فمماثلة للحمير.

لأجل ذلك كله – وغيره كثير – استحق هذا الخلف وبموجب سنن الله الكونية في إهلاك من كثر الخبث فيهم2 ولا يتناهون عن منكر فعلوه، وعيده لا وعده.. حيث يقول سبحانه: (وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم. وقطعناهم في الأرض أمماً.. الأعراف/167، 168)، إذ أنى لقوم هذا حالهم أن تقوم لهم قائمة أو تقام لهم دولة، اللّهم إلا إذا تساووا مع عدوهم في المعصية، فحينذاك تظل لهم الغلبة لكونهم وحسب ما تقضى به قوانين الحياة المادية أكثر عدة، ولأنهم وبأشياعهم وبمن سيطروا على عقولهم أكثر عدداً.. وفي ذلك يقول عز جاره وعظم سلطانه: (ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً. إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيراً.. الإسراء/6، 8).

لقد أوضح الحافظ ابن كثير في تفسيره (26/3)، أن المراد بقوله: (فإذا جاء وعد الآخرة): "أي أفسدتم الكرة الثانية"، كما ذكر ذلك الآلوسي في (روح المعاني) من المجلد التاسع، وفيما ذكراه ما يؤكد ربط الإفسادة الثانية بالكرة الثانية وربط الأخيرة بقوله: (جئنا بكم لفيفاً.. الإسراء/ 104) وربط ذلك كله بما يحدث لليهود الآن.

وبموائمة ما ذكره الحافظ والآلوسي وغيرهما، مع ما جاء في صدر السورة من قوله سبحانه: (ثم

---

(1) فعلى الرغم من أن الأديان في نبعها الصافي البريء من الإضافات والموروثات والإضافات والمصالح، تتخذ بقدر أو بآخر موقفاً إيجابياً سمحاً من ا لأغيار، يتفق مع مرجعيتها الأخلاقية من ناحية، ويليق بها كديانة تسعى لصلاح الحياة وشد الناس إلى خالقهم وربطهم بالمثل العليا من ناحية أخرى، إ لا أن الملاحظ أن أسفار العهد القديم طافحة بما يتنافي مع هذا المبدأ، ففي سفر الخروج 32: {25، 29}، واللاويين 20: {24-26}، وصموئيل الأول 15: {3-1}، 27: {12-9}، والثاني 12: {31}، والتثنية7: {1-6}، 13: {6-17}، 19: {1-14}،20: {10-16}، حزمة غريبة من الوصايا التي تبيح التغول في أراضي وأوطان الغير واستعمارها، وتحض على تسخير واستعباد الشعوب المغلوبة واستلاب جميع حقوقها.. وفيها كذلك حديث عن الحصد لأرواح الأغيار والسلب والتقتيل الذي لا يستثني النساء والأطفال الرضع، وكلام عن النهب والتدمير بلا غاية ولا ضابط ولا علة.. وبعض ذلك إن ساغ فيما سبق أن يقع تحت عفو الله وتوبته عليهم تحقيقاً لموعود الله لهم، فإنه الآن وبعد تحوله إلى بني إسماعيل، وإنزال عقاب الله بالتبديد والمحو والاستئصال لمن عصوا وكانوا يعتدون لا يسوغ بحال.. ينظر في تفصيل ذلك مجموعة مقالات لرجائي عطية عن الأديان والأغيار في العدد 235 وما بعده من صوت الأزهر.

(2) لما جاء عنهr في الصحيح من قوله لبعض أزواجه حين سألته: أنهلك وفينا الصالحون. قال : نعم إذا كثر الخبث"، والحديث أخرجه في باب الفتن البخاري4، 28ومسلم 1، 2والترمذي 21، 23وابن ماجة 9كما أخرجه صاحب الموطأ في الكلام 22وأحمد 428/6، 429.

رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا.. الإسراء/ 6).. وبضميمة كل ذلك إلى الوعيد المترتب على الإفساد في قوله: (لتفسدن.. الإسراء/ 4)، والتعبير عن الإفساد بـ المضارع وباللام الموطئة للقسم والممحضة لوقوع ذلك في المستقبل، يعني – فيما ترجح لدينا – بعد نزول الآية وتحول الموعود عنهم لتكون الحجة لهم ألزم وأدوم إلى قيام الساعة وتحقيق قوله: (وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا).. وإطلاق لفظ (عباداً لنا.. الإسراء/ 5) الذي ليس ثمة أولى وأحق بالوصف به من النبي r وصحابته الذين على أيديهم قامت خلافة الله الراشدة، وكذا من ستعاد تلك الخلافة على أيديهم قرب الساعة حيث يتجمع سبعون ألفاً من اليهود تحت إمرة الدجال.

المتمثلة الآن فيما يقع لليهود من علو وهيمنة1:كل ذلك يـ ُظهر بوضوح أن الإفسادة الثانية هي ، ومن تبنيهم للنظام الربوي العالمي ونشرهم للنوادي المخربة للعقائد، ومن إشاعة لروح الفوضى والخلاعة والمجون والإباحية، ومن انتهاكهم للحريات وإهدارهم للحقوق وسفكهم للدماء، ومن إعلانهم الصريح والجريء للحرب على كل المبادئ والقيم وعلى الإسلام وكتابه ونبيه وأهله، ومن تحريقهم للمسجد الأقصى الأسير والعمل على تخريبه بالحفر أسفله وبحصاره، والتضييق على المصلين بوضع القيود لدخوله ومنعهم من تأدية صلاتهم فيه بحرية، بل والاعتداء عليهم بالقتل أحياناً أخرى.. وما حادث اعتداء المجرم المدعو (جودمان) تجاه الركع السجود بشكل عشوائي في 11/4/ 1982 و الذي أسفر عن مقتل أحد حراس المسجد وجرح سبعة، وما محاولة زرع قنابل في رحابه بغرض تدميره أكثر من مرة، إلا شاهد صدق على ذلك2.

كما تشير الدلائل إلى أنه سيتحقق عقب إفسادتهم الثانية تلك، وعيد الله بتأديبهم وعقوبتهم وتسليط المسلمين عليهم كما سلطوا عليهم عقب الإفسادة الأولى التي كانت – على ما ترجح لدينا أيضاً – بُعيد البعثة المحمدية وبدءً من كيد بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة ويهود خيبر، وهم جملة من انحازوا إلى الحجاز عقيب زمن الاضطهاد الآشوري والروماني من معشر يهود للإسلام والمسلمين ، وبغوا على رسول السلام ونبي الإنسانية ورحمة الله للعالمين r، وغدروا بمعاهداته التي تقضي بأن لكل ٍّ دينه، وأن بينهم النصرة على من دهم يثرب وأن لا تجار قريش ولا من نصرها.. ومروراً بـ سعيهم وتعاهدهم معه لنقض ما بايعوه عليه المرة تلو المرة.. وانتهاءً بتآمرهم على قتله r ودسهم السم في طعامه وحياكة المؤامرات وتأليبهم الأحزاب عليه وعلى أصحابه.. ولقد صدق الله وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده، فمكن سبحانه له ولأصحابه من أهل الحق، وردوا يهود المدينة على أعقابهم وأجلوهم عن بكرة أبيهم من يثرب بكاملها – بعد أن أعمل المسلمون فيهم القتل والسبي وبعد أن ضربت عليهم الذلة والمسكنة، بل وبعد أن هلك جلّ من ألجئوهم للهرب إلى أذرعات ببلاد الشام3 – وقاموا بُعيد ذلك بتحرير الأرض المقدسة من دنسهم بعد أن تعاهدوا مع أهلها – على

---

(1) وتأتي في إطار هذه الهيمنة سعي يهود دائماً للانفراد بالسلاح النووي وتأبيها التوقيع على معاهدة حظر الأسلحة المحرمة دولياً، وسعيها كذلك للسيطرة على العالم كله لـ "تكون هي الأمة المتسلطة على باقي الأمم عند مجيء المسيح" الدجال على حد عبارة التلمود، وهم لأجل ذلك يسعون لا حتلال العقول قبل احتلال الأرض، ويديرون حروبهم بالوكالة، وقد هُيئ لهم ذلك حتى مع أعظم قوى الأرض وحتى أصبح حكام أمريكا وأوربا بلا استثناء دمىً في أيديهم وأشد حرصاً على تحقيق أحلامهم وأهدافهم ربما أكثر من اليهود أنفسهم.. ويكفي أن نعرف لإثبات ذلك: أن أمريكا – حتى تاريخ مطالبة فلسطين المجتمع الدولي للاعتراف بالدولة الفلسطينية في 24/ 9/ 2011 التي اعترضت عليه أيضاً – قد أساءت استخدام حق النقض (الفيتو) لصالح إسرائيل 36 مرة، وكان ضمن هذه المرات: الامتناع عن إدانة إسرائيل لقتلها الشيخ القعيد أحمد يس، وبنائها المستوطنات على أرض فلسطين المحتلة، واعتداءاتها المتكررة على المسجد الأقصى والمصلين فيه، وقتلها الأبرياء من النساء والأطفال في مذبحة غزة.. ناهيك عن تصريحات القادة الأمريكان بمساندة إسرائيل قلباً وقالباً على حساب الحق العربي: ومن ذلك قول الرئيس كارتر – كما في كتاب (البعد الديني في السياسة الأمريكية) ص 76 د. يوسف الحسن: "لقد آمن سبعة رؤساء أمريكيين، وجسدوا هذا الإيمان بأن علاقات الولايات المتحدة الأمريكية مع إسرائيل هي أكثر من علاقة خاصة، بل هي علاقة فريدة، لأنها متجذرة في ضمير وأخلاق الشعب الأمريكي نفسه".. وقول الرئيس (ريجان): "إنني دائماً أتطلع إلى الصهيونية كطموح جوهري لليهود، وبإقامة دولة إسرائيل تمكن اليهود من إعادة حكم أنفسهم بأنفسهم في وطنهم التاريخي ليحققوا بذلك حلماً عمره ألفا سنة".. وقول (كلينتون) في خطابه أمام القيادات اليهودية عام 1992: "إنني اعتقد أنه يتوجب علينا الوقوف إلى جانب إسرائيل في محاولاتها التاريخية لجمع مئات الألوف من المهاجرين لمجتمعها ودولتها".. وما خطابات بوش خاصة الابن وأوباما ومواقفهما المتعصبة تعصباً أعمى لإسرائيل، بالتي تخفى على أحد.. وهكذا هو الأمر بالنسبة لزعماء أوربا.

(2) وفي ذلك ما فيه من وعيد الله القائل: (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم.. البقرة/114).

(3) ينظر في تفاصيل ذلك نور اليقين للشيخ محمد الخضري ص 134، 154، 172، 208 وما بعدها، والرحيق المختوم ص171، 180، 216، 261، 278، 316 وما بعدها طبعة دار الوفاء .. ولعل مما يكشف عن بعض معالم هذه الإفسادة ما ورد في قول الله تعالى: (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به .. البقرة/89)، وقوله: (وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله {أي على محمد وصدقوه واتبعوه} قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله {أي الذين جاءوكم بتصديق التوراة التي بأيديكم والحكم بها وأنتم تعلمون صدقهم} من قبل إن كنتم مؤمنين .. البقرة/91)، وقوله: (أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون .. البقرة/100).

إثر طلب أهلها منهم ذلك – ألا يدخلها ولا يسكنها أحد من اليهود.
وفي كلام للشيخ الداعية محمد حسان يقرر فيه ما قررناه، يشير فضيلته إلى أن معنى قوله تعالى: (بعثنا عليهم عباداً لنا): "أي بعث الله على اليهود عباداً له ليسوموا اليهود سوء العذاب.. فالعبودية إن نسبت لله لا تكون أبداً إلا للموحدين، قال تعالى: (وعباد الرحمن.. الفرقان/ 63)، وقال تعالى: (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان.. الإسراء/ 65).. والبابليون وثنيون والرومانيون وثنيون وبختنصر وثني وليس بمسلم، فكيف يقال بأن هؤلاء تنطبق عليهم الآية؟.. إذن من هم عباد الله الذين سلطهم الله على اليهود أول مرة؟ إنهم أصحاب المصطفى r.. فهم الذين طردوا اليهود من بني النضير ومن بني قينقاع ومن خيبر ومن بني قريظة، وأخرجوهم من المدينة، ثم الصحابة هم الذين دخلوا المسجد أول مرة بقيادة أبي عبيدة بن الجراح، يوم نزل أمير المؤمنين عمر من المدينة ليتسلم مفاتيح بيت المقدس بيده، وليكتب لأهل بيت المقدس من أهل إيليا العهدة العمرية المشهورة.
وها نحن نرى الكرة قد أعيدت لليهود علينا، أي على أبناء أصحاب النبي r من الموحدين والمؤمنين مصداقاً لقوله تعالى: (ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال)، حيث أمد الله تعالى اليهود بالأموال والبنين بما لم يكن لهم على مدار تاريخهم.. كما أننا نرى أبناء اليهود من كل بقاع الأرض يجتمعون مصداقاً لقوله: (وجعلناكم أكثر نفيراً)، والنفير: هو نفير الحرب.. ولا أدل على صدق التنزيل هنا، مما يحدثنا به واقعهم المعاصر حيث يمتلك اليهود الآن مائتي قنبلة نووية وتمدها أوربا بكل ما تحتاجه من سلاح وعتاد.. ويأتينا من وراء ومن بعد كل هذا وعد نبينا r[1] وهو يضع يده على رأس أبي حوالة الأسدي ويقول: (يا أبا حوالة إذا رأيت الخلافة قد نزلت الأرض المقدسة، فقد دنت الزلازل والبلايا والأمور العظام، والساعة يومئذ أقرب إلى الناس من يدي هذه من رأسك).. ويحق لنا هنا أن نتساءل: هل تنزل الخلافة الأرض المقدسة والقدس عاصمة للصهاينة؟"![2].
ومن الأدلة المرجحة لاعتبار الإفسادة الأولى ما كان على يد النبي r وخلفائه الراشدين، ما جاء في قوله تعالى: (فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد.. الإسراء/5)، إذ ما من شك أن الأجدر لجعل الغلبة لهم على اليهود، والأحق – في ذات الوقت – بوصفه تعالى (عباداً لنا): هم النبي r وصحابته، لا ذاك المجوسي الكافر (بختنصر) ولا غيره ممن أهانوا القدس ودمروه.. ومنها أن بني إسرائيل الذين عاصروا رسول الله r، هم الذين نزل الوحي يحدث الناس بإفسادتيهم ويقيم عليهم حججه، ويحكي ما أخذه الله على آبائهم من عهود ومواثيق، ويحذر أبناءهم من مغبة الاستمرار في هذه المخالفات وهذا الإعراض عن تنفيذ أوامر الله التي منها الإيمان بالرسول صلوات الله عليه وسلامه، ويخبر عما يقولونه وما يفعلونه وما يكون بينهم وبين هذا النبي الخاتم r من مساجلات ومحاورات ومجادلات، بل ويكشف عما يفكرون فيه وما يدور بخلدهم وتجيش به صدورهم، فناسب من باب إلزام الحجة أن يكون الخطاب في قوله تعالى: (لتفسدن في الأرض مرتين.. الإسراء/ 4) – والحال هكذا – لهم، ليبين ما سيكون من شأنهم – بعد اليأس من إصلاح آبائهم وفعلهم ما فعلوه مع أنبيائهم وتحول موعود الله عنهم – وما إذا كانوا سيظلون سادرين في غيهم، أم يتخذون مما جرى لآبائهم العظة والعبرة؟.. ومنها ما جاء عن اليهود الذين خيب الله مسعاهم وقد أرادوا استئصال شأفة الإسلام بعد أن (ظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب.. الحشر/2)، حيث كانت النتيجة في نهاية المطاف ميراث الأرض والديار والأموال، وكان ما حكاه القرآن بحق أهل الإيمان من أن الله تعالى (أنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً. وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطئوها وكان الله على كل شيء قديراً.. الأحزاب/26، 27).
ومما يعضد من تحديد معالم تلك الإفسادتين ولاسيما الأولى منهما ويدلل على أنها التي كانت على يد النبي r وأصحابه الكرام، ما ورد على ألسنة من عاصروا رسول الله r من أسلاف اليهود.. فهذا سيد قومه حيي بن أخطب – وقد حكم سعد بن معاذ فيه وفي قومه بحكم الله الذي قضي بأن تسبى نساؤهم وذراريهم وتقسم أموالهم وتقتل رجالهم وكانوا ما بين الستمائة والتسعمائة – يؤتى به

---

(1) كما جاء في مسند أحمد وسنن أبي داود والحاكم وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير 7715.
(2) مجلة التوحيد عدد رمضان سنة 1421 ص 24 باختصار، وينظر كتابه (لا، لن تضيع القدس) ص 91، 97 .. وإلى مثل هذا ذهب لفيف من أصحاب الفضيلة العلماء من نحو الشيخ متولي الشعراوي والشيخ عبد المعز عبد الستار وغيرهما.

وعليه حلة قد شقها عليه من كل ناحية قدر أنملة لئلا يُسلبها، مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، فلما نظر إلى رسول الله r قال: (أما والله ما لمت نفسي في عداوتك، ولكنه من يخذل الله يُخذل)، ثم أقبل على الناس فقال: (أيها الناس، إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر، وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل1، ثم جلس فضربت عنقه)، كذا في سيرة ابن هشام3/ 146، 147 ولأي منصف أن يقارن ويـ لاحظ ما قاله هذا الخئون الغادر من تعبيرات، تكاد تحكي وتفسر ما جاء في صدر سورة الإسراء.

وها هو ذا ابن الهيّبان اليهودي الذي كان يُستسقى بدعائه لصلاحه ويورد ابن هشام قصته في السيرة1/ 197، يقدم قبيل الإسلام من بلاد الشام، وينصح فتية حل عليهم من بني قريظة، يحذرهم من عاقبة الإفساد الذي يأتي على قمته الكفر بالنبي محمد r ويقول لهم وقد حضرته الوفاة دون أن يدركه: (يا معشر يهود.. إني إنما قدمت هذه البلدة أتوكف خروج نبي قد أظل زمانه، وهذه البلدة مهاجره، فكنت أرجو أن يبعث فأتبعه، وقد أظلكم زمانه، فلا تُسبَقنّ إليه يا معشر يهود، فإنه يبعث بسفك الدماء وسبي الذراري والنساء ممن خالفه، فلا يمنعكم ذلك منه)، فلما بعث r وحاصر بني قريظة، قال هؤلاء الفتية وكانوا شباباً أحداثاً: يا بني قريظة، والله إنه النبي الذي كان عهد إليكم فيه ابن الهيّبان، قالوا: ليس به، قالوا: إنه لهو بصفته، فنزلوا وأسلموا وأحرزوا دماءهم وأموالهم وأهليهم.

وهؤلاء هم رؤساؤهم وكبار أحبارهم يكلمهم رسول الله r ويقول لهم: (يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا، فوالله إنكم لتعلمون أن الذي جئتكم به لحق)، فيجحدوا ويصروا على كفرهم، فينزل فيهم قول الله تعالى: (يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا ً.. النساء/ 47)، ولا يخفى مواكبة هذه الآية من كتاب الله تعالى وما شاكلها من الآيات التي نزلت في حقهم مع ما جاء منها في قوله تعالى: (وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين.. الإسراء/ 4)، من أمر القضاء إليهم في نفس الكتاب بالإفسادتين.. كما لا يخفى ما في معنى الطمس الواردة في آية النساء السالفة الذكر والواردة في كثير من آي عهدهم القديم، من استئصال الشيء وجعله أثراً بعد عين، وقد كان.

فقد طوردوا من أرض خيبر آخر معاقلهم بالجزيرة شر طردة، بعد أن دُكت حصونهم ومعاقلهم وأُخرج من بقي منهم بذراريهم، لا يصحب الواحد منهم سوى ثوباً واحداً على ظهره.. ثم كان ما كان من شأن أولئك النفر الذين عهد إليهم رسول الله r بالبقاء في خيبر، حتى عـ ـدَ ـوا على عبد الله بن سهل فقتلوه وطفقوا يحلفون أنهم ما قتلوه ولا يعلمون له قاتلا ً، فوداه r من عنده مائة ناقة، فلما بلغ عمر أن رسول الله قال في وجعه الذي قبض فيه: (لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان)، أنفذ من كان عنده عهد منهم لرسول الله وأجـ ـّل من لم يكن عنده عهد، فلما فُدغ ولده عبد الله أخرجهم جميعاً ولم يـ ـُبق منهم أحداً على ما جاء في سيرة ابن هشام 3/ 229 وما بعدها.. ثم كان أن حرّم عمر بعد توليه الخلافة بيت المقدس عليهم بعد فتحه من قِبل الصحابة الكرام، وذلك بموجب الوثيقة التي اختطها بطريرك القدس (صفرنيوس) معه وهو يسلمه مفاتيح القدس على ما سبق ذكره.

ولعل ما يؤيد هذا الاتجاه في تحديد الإفسادتين الواردتين في صدر سورة الإسراء، ما نراه حاصلا ً الآن ومتفقاً مع ما جاء في قول الله مخبراً عن نهاية بني إسرائيل بعد الإفسادة الثانية: (وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً.. الإسراء/ 104).

فما التف بنو إسرائيل طوال تاريخهم الطويل بمثل ما التفوا الآن، فقد بدءوا ينسابون على غير عادتهم، إلى أكناف بيت المقدس في غفلة من المسلمين، وكان تعداد أول من هاجر منهم في أعقاب سنة 1882 – على الرغم من إصدار الحكومة التركية العثمانية قانوناً يحرم على اليهود دخول فلسطين – خمساً وعشرين ألف مستوطن، أضيف إليهم خمسون ألفاً من اليهود الأوربيين تسللوا سنة 1895م تحت جنح الاستعمار الإنجليزي.. حتى ارتفع عددهم بعيد وعد بلفور سنة 1917إلى 300 ألفاً يعني بما يعادل10 % من نسبة سكان فلسطين على مسافة تقدر بـ 2% من مساحتها.. ثم إلى

(1) ومن طريف ما جرى مع بعض أولئك أنهم قالوا لكعب بن أسد رأس القوم، وهم يُذهب بهم إلى رسول الله أرسالا ً: يا كعب، ما تراه يصنع بنا؟ قـ ال: أفي كل موطن لا تعقلون؟ ألا ترون الداعي لا ينزع، وأنه من ذُهب به منكم لا يرجع؟ هو والله القتل، فلم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم صلوات الله وسلامه عليه.. وكانوا قد حرضوا قريشاً على حرب الرسول وصحبه وحزبوا الأحزاب حتى تسببوا في جمع ما يربو عن العشرة آلف محارب، ناقضين بذلك ما كان بينهم وبين المسلمين من عهود ومنوهم بالمساعدة .. ينظر سيرة ابن هشام 3/ 146.

400 ألف عام 1936، ثم إلى 650 ألفاً على مساحة تقدر بـ 80% من أرض فلسطين بعد أن تم تشريد 800 ألف من سكانها عام 1948، وتتابعت فيما بعد الهجرات من كل أنحاء العالم حتى أربى عددهم الآن إلى الخمسة ملايين من أكثر من سبعين جنسية ومن مجموع عشرين مليون هم إجمالي يهود العالم في أصقاع الأرض.

استُقطِب هؤلاء جميعاً في زمن قياسي، واستوطنوا البلاد بعد أن أخرجوا منها أهلها بغير حق، وأنشئَوا فيها المدائن والمدارس والمصانع، وراحوا "ينفثون سمومهم في أرجاء الأرض ليدمروها ويحتلوها ليتوجوا الدجال – المسيح الأعور – لأورشليم القدس"1، مستعدين في تحقيق ذلك بما أوتوا من الآلة العسكرية والقوى التدميرية والهيمنة السياسية والاقتصادية ما لم يؤتوه من قبل، وبما يفوق الوصف والخيال مصداقاً لقول الله تعالى: (ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً.. الإسراء/6)، وليكونوا بعد ذلك هدفاً للإهلاك والتدمير على يد عبادٍ لله، يسلطون عليهم فيقهرونهم ويجبهون وجوههم بالمساءة والمذلة ويجوسون خلال ديارهم وأموالهم، ويدخلون المسجد الأقصى ويحررونه كما حدث قبل على عهد الخليفة عمر ومن كانوا معه من الصحابة الأجلاء، على ما يفهم من قوله عز من قائل: (فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيراً.. الإسراء/ 7)2.

ويشهد كل من له أدنى بصيرة، مدى استحكام العداء من قِبل معشر يهود تجاه أتباع محمد r، فما من بلاء يقع فيه المسلمون في شرق أو غرب إلا ولليهود اليد الطولى فيه، مما يؤذن بأن المواجهة حاصلة لا محالة ولاسيما مع ما جبلوا عليه من نقض للعهود.

ومما يشعر بطعم الراحة وبرد اليقين، أن هذا العداء والإفساد اللذين يصدران عن بني إسرائيل ويُحدِثانه، وبخاصة ما يقع منهما في أرض المعراج، شرطان ضروريان لكي يتحقق وعيد الله فيهم و ينزل بهم عقابه وعذابه.. أما الإفساد في الأرض الذي لم يقع لهم إلا بعد علو وتمكين يمكّناهم من قهر عدوهم وتدمير حياته بصورة يجد المغلوبين على أمرهم – من أصحاب الحق والأرض – أثرها ألماً في نفوسهم ومرارة في حلوقهم، فهو ما وقفنا على بعض مظاهره.. وأما العداء والتعدي المستوجب لحتمية المواجهة، فهذا يشعر به أهل الأرض جميعاً، لكونه بادياً للعيان وظاهراً لكل ذي عينين ك الشمس في رابعة النهار.

ومن الأدلة المنبئة بحدوث المواجهة بين هذه القوة الغاشمة وبين أهل الإيمان الذين يؤمل ويُرجى أن يتحقق على أيديهم وعلى يد أخلافهم وأضرابهم من أهل دمشق والشام بمشيئة الله، وعد الله بالنصر والتمكين – على الرغم من كل ما ذكرنا من هيمنة عدوهم – ما أخرجه البخاري ومسلم عن ابن عمر من قوله r: (تقاتلكم اليهود فتسلطون عليهم حتى يختبئ أحدهم وراء الحجر فيقول الحجر: يا عبد الله هذا يهودي ورائي فاقتله)، وفي رواية لأبى هريرة بلفظ: (لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر.. الحديث)3، وقد حدث – وأيم الله – ما تنبأ به وأنبأ عنه رسول الله r الذي (ما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى.. النجم/3، 4)، فقد طالعتنا مجلة الأزهر في عددها الصادر في ربيع الآخر لعام 1424الموافق لشهر يوليو لسنة 2002 نقلا ً عن جريدة (آفاق عربية) المصرية بتاريخ 2002/5/9 من حديث للشيخ أحمد ياسين – عليه رحمة الله – عبر الهاتف موجهاً كلمته لمؤتمر نقابة الأطباء الرابع بمحافظة الغربية إحدى محافظات مصر، وسمعه مئات الحاضرين: "إن بشائر النصر قد رأيناها بأعيننا، حيث إن رجال المقاومة في (رام الله) ظلوا يطاردون أحد المستوطنين حتى اختفى عن أعينهم خلف الأشجار، فأنطق الله الشجر وقال لهؤلاء الأبطال: (هذا اليهودي ورائي)، ويذهب الشباب إليه خلف الشجرة ويقتلونه".. ثم يختم الشيخ كلامه قائلا ً: "إنه حديث رسول الله r".. ولا غضاضة ولا غرابة إن رأينا ذلك يتكرر مرة بعد مرة.

---

(1) (نهاية اليهود) لمحمد عارف ص 18.

(2) الأمر الذي يعني أن ما عدا ذلك مما وقع لهم سواء على أيدي مسلمين أو كفار، هو مما يصدق عليه قوله تعالى: (وإن عدتم عدنا.. الإسراء/ 8)، وقوله: (ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين.. آل عمران/ 127).. ذلك أن القول بأن نهايتهم في إحدى الإفسادتين كانت على يد بختنصر أو غيره من أهل الكفر، يرده ما جاء في قوله تعالى: (عباداً لنا)، وما كان في عهد صلاح الدين، يرده أن ذلك إنما كان ضد الصليبيين لا اليهود.

(3) الحديث بروايتيه وبنحوهما أخرجه فيمن أخرجه البخاري في كتاب المناقب 61 وباب علامات النبوة 25وكتاب الجهاد باب قتال اليهود 2925، 2926ومسلم في كتاب الفتن (2922) وأحمد 2/ 417، 520.

لقد رسمت آيات سورة الإسراء إذاً أمامنا الصورة واضحة، وأوقفتنا على ما لنا وما علينا، وأفصحت عن أن هذه القلة المتمردة التي ابتلينا بها وتسعى لأن تجمع نفسها وتلم شعثها بعد أن نزل بها من بأس الله ما نزل، يجعل الله لها الكرة، لتقارب من يريد التصدي لها معها في المعصية والابتعاد عن منهج الله.. وأن الأمة المسلمة حتى وان كان عددها كثير كغثاء السيل، لكن لا ولن تتمكن من هذه القلة التي تملك من الأسلحة المحرمة وغير المحرمة ما تملك، إلا إذا أذعنت للحق وأقامت شريعة الله وخلافته في الأرض، ونزعت عن نفسها ثوب الوهن المتمثل في: حب الدنيا وكراهية الموت، وحققت العبودية لله بكل معانيها فتعيد– من ثم – لنفسها الإمامة والريادة.

وإلى أن يحدث ذلك فتُخرج هذه الأمة من بين ظهرانيها (عباداً لنا أولي بأس شديد.. الإسراء/5)، وأناساً أقوياء من أهل السنة يتجردون للحق قولاً وعملاً، فيجوسون خلال الديار ويحققون موعود الله ونصره – الآتي لا محالة – وتكون خلافتهم على منهاج النبوة على ما جاء ذكره في قوله r فيما أخرجه أحمد في مسنده[1]: (تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون فيكم ما شاء أن تكون ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكاً عاضّاً فتكون فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم يكون ملكاً جبرياً فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة).. إلى أن يحدث هذا فسيظل الصراع مستمراً إلى يوم القيامة بين قوى الشر وقوى الخير التي لن تعدم على أي حال جنوداً يكونون على الإسلام والسنة، يجتهدون في معرفة الحق ويعملون في الوصول إليه ويجاهدون في سبيل الله ما وسعهم الجهد.

وعلى الذين يريدون السعي لإقامة الدين واستعادة خلافة على منهاج النبوة، ويبغون نسبة هذا الفخر لأنفسهم في زماننا، أن يعلموا أنهم لن يصلوا إلى تحقيق هذا إلا بعد أن يصدر عنهم ومنهم ما يدل على تجردهم للحق ولنهج النبوة قولاً وعملاً، فلا يتعصبون – على نحو ما هو حاصل الآن – لمنظِّريهم ولا لمشايخهم ولا لمؤسسي دعوتهم، ويجعلون حبهم لهؤلاء جميعاً في الله لا مع الله، ويراجعون أنفسهم ومناهجهم لتوافق صحيح السنة وصريح القرآن.. وإنما يتأتى ذلك بالتعاون مع أهل الإيمان وبالاستجابة لنصائح المخلصين منهم وقبول انتقاداتهم وتفادي ما ورد منها، وبإعلان تبرئتهم وتخليهم عن الأخطاء الشرعية ولاسيما ما تعلق منها بمعتقد أو بما لا يسع فيه الخلاف.. كما يتأتى بتصحيح الولاءات وباعتبار أنفسهم جماعة من المسلمين، وبقبولهم الغير في إطار من الحب في الله فلا يستأثرون برأي ولا يقطعونه دون إخوانهم، وبقبولهم التشاور مع من كان انتماؤه إلى أهل السنة دون سواهم من فرق الضلالة.. يتأتى حين يسيرون في الناس مسيرة عمر بن الخطاب وصلاح الدين، فيشيعون العدل والرحمة بين الناس دون ما تفرقة بين المؤالف لهم والمخالف، وحين لا تكون غايتهم طلب الحكم لأنفسهم حتى لا يوكلون إليه لاسيما وأنهم ليسوا أولى به من سواهم، وحين يتخلون بذلك عن السعي لطلب الزعامات أو حب ظهور، إذ تلك هي الشهوة الخفية التي تنافي التواضع والتجرد لمعرفة الحق وإقامة دين الله على نهج النبوة، وأيضاً حين يستوعبون الأحداث وسائر المناوئين والمخالفين على ضوء ما كما كان يفعل النبي r وصحابته في أمور السياسات الشرعية.

وباختصار فإن استعادة الخلافة يتأتى لمن تتعمق فيهم صفات أهل التمكين التي جاء ذكرها في نحو قول الله تعالى: (يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم.. المائدة/ 54)، وقوله: (أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً.. الفتح/ 29).. ويكونون ظاهرين على الحق على النحو الذي ورد في قوله r فيما رواه أحمد والطبراني بسند رجاله ثقات عن أبي أمامة: (لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين لعدوهم قاهرين لا يضرهم من جابههم إلا ما أصابهم من لأواء – أي من أذى – حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك، قيل: يا رسول الله، وأين هم؟ قال: ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس)2،

---

(1) المسند 273/14 وأورده الألباني في الصحيحة برقم 5 (1/ 8).

(2) الحديث وبنحوه رواه البخاري في باب الاعتصام 10والمناقب 28 والتوحيد 29 ومسلم في الإيمان 247 والإمارة 170، 171، 173، 175، 177 وأبو داود في الجهاد 4 والفتن 1، كما رواه الترمذي في الفتن 27، 51، 55 وابن ماجة في المقدمة 1 والفتن 9 والدارمي في باب الجهاد 38، 55 وأحمد 104/4، 34/5، 35، 269، 278، 279.

وكذا ما رواه أبو يعلي وقال الهيثمي رجاله ثقات من حديث أبي هريرة من قوله r: (لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أبواب دمشق وما حولها، وعلى أبواب بيت المقدس وما حوله، لا يضرهم خذلا ن من خذلهم، ظاهرين على الحق، إلى أن تقوم الساعة)، وما رواه الطبراني عن خريم بن فاتك الأ سدي عن النبي r: (أهل الشام سوط الله في أرضه ينتقم به ممن يشاء من عباده، وحرام على منافقيهم أن يظهروا على مؤمنيهم ولا يموتوا إلا هماً وغماً).
ويحدونا ما سبق سرده، إلى أن نذكر بما جاء في السنة المطهرة مشيراً إلى محق الباطل وأهله ضمناً، وإلى أن نبشر بتحقيق موعود الله لهذه الأمة صراحة على نحو ما ورد في قوله r فيما أخرجه مسلم (2889) عن ثوبان: (إن لله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها)، وقوله فيما أخرجه أحمد في مسنده (17082) وابن حبان (1631، 1632) وكذا الطبراني والحاكم والألباني في الصحيحة رقم 3 (1/ 7) عن تميم الداري: (ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مَدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين بعز عزيز أو بذّل ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام وذلا ً يذل الله به الكفر).
والله نسأل أن يستخلفنا لدينه ولا يستبدلنا، وأن يجعلنا ممن يُعز بهم الإسلام وأن يلحقنا بمن في أكناف بيت المقدس ممن هم ظاهرون على الحق وأن ييسر لنا سبل الوصول إليهم، وأن يجمعنا وإياهم في الدنيا على محبته ورفعة دينه وإقامة خلافته، وفي الآخرة في مستقر رحمته.. اللهم آمين.
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

****

الخاتمة

****

يحق لنا بعد كل ما تقدم أن نقول بكل ثقة ويقين مرددين ما ذكره د. أحمد عصام البشري المفكر السوداني وعضو المجلس الوطني، في مجلة القدس العدد 24ص 6:
إن الحق التاريخي لليهود في أرض فلسطين والزعم بأن إسرائيل ما جاءت لتحتل أرضاً بل لتسترد حقاً، فرية شوهاء وكذبة بلقاء لا تقوم على ساق ولا تنهض بها حجة، وهي أوهى من بيت العنكبوت، كما أن القول بأن لليهود حقاً دينياً في فلسطين بدعوى أنها تُعد الآن امتداداً لمملكة داود التي قامت في القرن العاشر قبل الميلاد، لا يقوى أمام التحقيق العلمي، وكذا ما استطاعوا أن يُؤَثِّروا به على الغرب المسيحي من الاعتقاد بأن عودة المسيح مرهون بتجميع اليهود في أرض فلسطين، والإعلان بأن تأسيس الكيان الصهيوني تحقيق للنبوءة التوراتية التي تقول: إن اللّه وعد إبراهيم (بأن يعطي نسله أرض فلسطين. وكذلك وعد ابنه إسحاق وحفيده يعقوب..).. كل ذلك وهم كبير، ذلك أن (أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا واللّه ولي المؤمنين.. آل عمران/68).. كما أن الإمامة لا تنتقل بالوراثة وإلا شابها الجور و الظلم الذي لا يرضى عنه رب العزة القائل لإبراهيم عندما (قال ومن ذريتي؟) طالباً إياها لبنيه ولبني بنيه من بعده، فكان الجواب من اللّه (قال لا ينال عهدي الظالمين.. البقرة/124).
وأضيف أن ادعاء يهود للحق الديني في أرض الميعاد إنما تبخر جراء مواقفهم المتمردة على أوامر اللّه وفعلهم الشر في عيني الرب وإغاظته، وبارتباط أكثر من ألف مليون مسلم الآن وأضعاف أضعاف ذلك من قبل ومن بعد إلى قيام الساعة، بمنتهى مسرى نبيهم r ومفتتح معراجه إلى سدرة المنتهى، كما تبخر ادعاؤهم بحقهم التاريخي بأسبقية العرب في هذه البلاد بألفي عام، وبغربتهم عن هذه البلاد منذ وقت امتلاكهم لها أيام داود كما جاءت بذلك نصوص التوراة[1] وإلى زوال دولتهم على أيدي الآشوريين والبابليين وهي فترة لا تزيد في جملتها عن مائة عام، والتاريخ وعموم الكتب المقدسة تشهد أنهم عاشوا فيها غرباء، كما تشهد وتسجل أنهم عندما دخلوها لم يجدوها فارغة وعندما رحلوا عنها لم يتركوها فارغة، لقد كان فيها أهلها الفلسطينيون (الكنعان) المذكورون في التوراة والذين لا يزالون سلفهم الممتد إلى يوم القيامة على الرغم من محاولات تغيير معالم الأرض بعد اغتصابها واتباع كافة أساليب الإخراج، تلك المحاولا ت والأساليب التي يتبعها معشر يهود وتشهد بأنهم أعظم وأشد الناس معاداة للسامية.
وعليه فإن ثمة خيانة تلحق العرب والمسلمين إن هم فرطوا في شبر واحد من أرض فلسطين قاطبة أو في قدسهم الشريف على وجه الخصوص، وذلك بموجب الوثيقة العمرية التي أمرنا من المعصوم r بأن نعض على سنة صاحبها بالنواجذ، تلك الوثيقة التي نصت على ألا يسكن أرض إيلياء (فلسطين) يهودي واحد، والتي جاء في آخرها: "وعلى ما في هذا الكتاب عهد اللّه وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين".. بل وبموجب نصوص التوراة نفسها التي باسمها ينتهكون العرض ويحتلون الأرض ويريدونها من النيل إلى الفرات، إذ التوراة عينها هي التي انتزعت منهم حقهم في العودة إلى أرض فلسطين – التي هي في الأساس ليست لهم – وذلك بعد أن عاودوا

(1) سفر القضاة 19: 11-12و صموئيل الثاني 24: 21-25.

أغاظة الرب بمعبوداتهم الباطلة وتآمروا على أنبيائه وحرفوا الكلم عن مواضعه، وبعد أن خالفوا شرائعه ووصاياه، فاستحقوا بذلك أن يبددهم إلى الزوايا ويبطل من الناس ذكرهم[1]، ويذلهم ويستأصلهم من الأرض التي وعدهم من قبل بامتلاكها ويشتتهم في جميع الشعوب من أقصاء الأرض إلى أقصائها[2].
ألا فليذهب أولئك الأنجاس وليرحلوا عن ديارنا ومقدساتنا، وليبحثوا عند من منّوهم بـ الرجوع إلى فلسطين عن مكان آخر، أو فليعودوا من حيث جاءوا.. فلا مكان لهم بيننا، وللبلاد المقدسة أهلها، ويتوجب عليهم حتى يقضي الله فيهم أمراً كان مفعولاً، أن يكفوا عن ظلمهم وبغيهم وعبثهم بالحرمات والمقدسات وإلا فـ (سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.. الشعراء/227)، (وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار.. الرعد/42).

****

(1) سفر التثنية32: 26.
(2) سفر التثنية4: 25-27، 8: 17-20، 28: 63، 64، 30: 15-20، 32: 26وسفر الملوك الأول 9: 3-9 وسفر الملوك الثاني 17: 11-20وإرميا 25: 23.

أهم مراجع البحث

1- إتحاف الأخصا بفضائل الأقصى لأبي عبد الله محمد بن شهاب الدين أحمد بن علي المنهاجي السيوطي- الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة 1398 ط 1.
2- الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة لشهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي ت/ مجدي الشهاوي ط مكتبة القرآن.
3 ـ إظهار الحق لرحمت الله الهندي.تحقيق د.محمد مكاوي. دار الحرمين تحت إشراف الرئاسة العامة الإفتاء بالرياض.ط2 سنة 1413هـ.
4 ـ الامبريالية والصهيونية والقضية الفلسطينية. د. بشير موسى نافع.دار الشروق ط1سنة 1420هـ.
5 ـ البداية والنهاية للحافظ ابن كثير مكتبة المعارف بيروت ط1 سنة1966م.
6 ـ تاريخ الطبري. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط2 دار المعارف بمصر سنة1962م.
7 ـ تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير. مكتبة مصر بالفجالة.
8 ـ تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن ط/دار الغد العربي بالقاهرة.
9 ـ التوراة السامرية ترجمة أبي الحسن الصوري ونشرد.أحمد حجازي السقا. دار الأنصار بالقاهرة ط1 سنة1398هـ.
10 ـ الجواب الفسيح لما لفقه عبد المسيح للإمام الآلوسي البغدادي. دار البيان العربي.
11 ـ خطط الشام لمحمد كرد علي. ط/ دار العلم للملايين بيروت سنة1389هـ.
12 ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم للإمام الآلوسي ط/ دار الفكر سنة1417هـ.
13 ـ السيرة النبوية لابن هشام تحقيق د/ طه عبد الرءوف سعد ط3 لسنة1398 مكتبة الكليات الأ زهرية.
14 ـ عروبة بيت المقدس د. إسحاق موسى الحسيني من مطبوعات المجلس الأعلى للشئون الإسلا مية العدد 67 لسنة1421هـ.
15 ـ علامات النبوة لعبد الملك علي الكليب مكتبة القدس بالمنوفية ط1لسنة1415هـ.
16 ـ فتوح البلدان لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذري تحقيق د.صلاح الدين المنجد مكتبة النهضة المصرية.
17 ـ في الدعوة الإسلامية بين غير المسلمين لمحمد عزت الطهطاوي ط/ دار التراث سنة1399هـ.
18 ـ (القدس) تقرير شهري يصدر عن مركز الإعلام العربي.أعداد 24، 28، 32.
19 - القدس عربية. من مطبوعات الهيئة العامة للاستعلامات في جمهورية مصر العربية .
20 ـ القدس عربية إسلامية د.فرج راشد. من مطبوعات الهيئة العامة لقصور الثقافة 2000م.
21- ـ القدس قضية كل مسلم د. يوسف القرضاوي.مكتبة وهبة ط2 سنة2000م.
22 ـ القدس مدينة السلام عبر التاريخ. من مطبوعات الجمعية الرئيسية بالقاهرة.
23 ـ الكامل في التاريخ. لعز الدين أبي الحسن المعروف بابن الأثير ط/ دار صادر سنة 1402هـ.
24 ـ الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد.ط دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط عن الترجمة اليونانية سنة 1865م.
25 ـ لسان العرب. لابن منظور.ط/دار المعارف بالقاهرة.
26 ـ محمد نبي الإسلام في التوراة والإنجيل والقرآن. لمحمد عزت الطهطاوي. مطبعة التقديم.
27 ـ المسجد الأقصى ومعركة النصر والفتح للشيخ عبد اللطيف المشتهري ط/دار الاعتصام.
28 ـ نهاية اليهود لأبي الفداء محمد عزت عارف. دار الاعتصام بالقاهرة.
29 ـ نور اليقين في سيرة سيد المرسلين للشيخ محمد الخضري ت نايف العباس وآخر بدون تاريخ.
30 - هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى. للإمام ابن القيم تحقيق د. أحمد حجازي السقا دار الريان ط/ الدار السلفية.

31 ـ الوفا في أحوال المصطفى. للإمام ابن الجوزي تحقيق مصطفى عيد الواحد.ط1 سنة1386هـ دار الكتب الحديثة بعابدين.القاهرة.

****

فهرس الكتاب

إهداء

المقدمة

تمهيد
حقائق حول عدم أحقية اليهود في أرض فلسطين

الحقيقة الأولى: تعليق موعود الله لبني إسرائيل على استيفاء شروط.

الحقيقة الثانية: إخلال بني إسرائيل بشروط موعود الله.

الحقيقة الثالثة: موعود الله لبني إسرائيل كان موقوتاً بفترة زمنية محددة.

الحقيقة الرابعة: تفضيل بني إسرائيل استثناء، كان مرده التمسك بما أخذ عليهم من مواثيق.

الحقيقة الخامسة: لا محاباة في أن عهد الله لا ينال الظالمين ولا ينالونه.

الحقيقة السادسة: تقصية هاجر كان بمثابة التمهيد لإيجاد البديل المستحق لموعود الله.

الحقيقة السابعة: الإيذان بتحول الإمامة كان في ليلة التتويج (ليلة الإسراء).

الحقيقة الثامنة: التواصل الإيماني هو الأصل والأساس.

الحقيقة التاسعة: أحقية ذرية إسماعيل في أرض فلسطين كما ترويه حقائق التاريخ و المنظمات الدولية وأدلة العقل والنقل.

الحقيقة العاشرة: عاجل مستقبل أرض الميعاد وآجله، يحدده الشرع الحنيف وسنن الله الكونية لا أمزجة البشر

رقم الإيداع: 5812/ 2002

<u>هذا الكتاب</u>

وبعد: فهذا الكتاب.. يفند افتراءات معشر يهود التي يزعمون من خلالها أحقيتهم في بيت المقدس خاصة وفي أرض فلسطين عامة، كما يتضمن الحقائق الدامغة التي تحق هذه الأكاذيب بما لا يتطرق إليها أدنى شك لكونها مستقاة من كتابهم المقدس ومتكئة على ما استقر عليه الأمر في كافة الشرائع والأعراف والمواثيق الدولية.. وهو رد على ما يثيره الدهماء و الغوغاء من مسلمي ونصارى العالم، الذين تخفى عليهم حيل وأساليب قوى ا لاحتلال الإسرائيلي وإعلامه المضلل، من الزعم بأن أرض فلسطين هي ملك آبائهم وأجدادهم، ومن الادعاء بأنهم الأمة المفضلة وشعب الله المختار المستحق لأرض المسلمين من النيل إلى الفرات، هذا الادعاء الذي تروج له وتسعى لتنفذه الآن وبكل ما أوتيت من قوة: أمريكا وتحالفها البغيض..(كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً.. الكهف/ 5).
كما أنه رد على هذه التفرقة والتقسيمة العجيبة التي ارتضاها المجتمع الدولي تحت ضغط من القوى الاستعمارية وجراء سكوت العرب وضعف المسلمين، وأعني بذلك التفرقة ما بين ما قبل سنة 1967مما يزعمون أنه ملك لليهود، وما بعد ذلك مما يعترفون – على مضض – بأنه احتلال لا حق لهم فيه.
وهو أيضاً تنبيه لمنظمات المجتمع الدولي – التي جاملت اليهود كثيراً ولا ز الت بسكوتها عن جريمة انفرادهم بأسلحة الدمار الشامل دون سائر بلدان المنطقة وبغضّها الطرْف عن فعالهم القبيحة ضد أصحاب البلاد بشكل يومي من قتل لأفرادهم وتدمير لديارهم ومن احتلال لأرضهم وأسر لشبابهم – إلى أن هذه الجرثومة التي زرعت في أرض المسلمين بدون وجه حق، خطر على سائر دول العالم حتى وإن لم تكن في بلدانه.. وتذكير له بأن أساس فكرة الاستيطان التي بدأت بعد وعد بلفور إنما بنيت على مبدأ إعطاء من لا يملك لمن لا يستحق، وأن فترة بقائهم المحدودة أيام نبي الله

داود عليه السلام إنما كانت فترة احتلال واغتراب على ما نطقت بذلك كتبهم التي بين أيديهم.. وبيان بأن هذا الوضع الاستعماري لا يرضاه العرب ولا المسلمون لأنفسهم، تماماً كما لا ترتضيه أية دولة لنفسها، فضلا ً عن أن يرتضيه لها المجتمع الدولي الذي الأصل فيه أن يكون عادلا ً ولا يكيل لبني البشر بمكيالين.. والله من وراء القصد وهو الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

****